اسماعيل مظهر

الحب الأول
أو
قيصر وكليوبطرا

طبع على نفقة

مكتبة النهضة المصرية

الحب الأول

أو

قيصر وكليوبطرا

نُطَوِّفُ ما نُطَوِّفُ ثُمَّ نأْوِي
ذَوُو الأَمْوَالِ مِنَّا والعَدِيم
إلى حُفَرٍ أَسَافِلُهُنَّ جَرْفٌ
وأَعْلاهُنَّ صُفَّاحٌ مُقِيم

بقلم

إسماعيل مظهر

عضو المجمع المصرى للثقافة العلمية

طبع على نفقة

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها: حسن ويوسف محمد وأخوتهما

١٥ شارع المدابغ تليفون ٥١٣٩٤

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٧

الإهداء

إلى إزيس

الحب الأول

أو

قيصر وكليوبطرا

قصص تاريخي

كانت الحرب الأهلية دائرة الوحى بين پومپيوس الكبير ، ويوليوس قيصر . وكانت مصر فى أخريات عصر البطالمة ، قد لجأت إلى رومية تطلب منها العون وتستمد الحماية . وكان بطلميوس أُوتيلِس ، والد كليوبطرا ، قد خلف وصية ، ترك فيها أمر الوصاية على أولاده الأربعة ، بطلميوسين وكليوپطرا وأرسنوى ، للجمهورية الرومانية . فلما مات انقسم الأحزاب فى رومية شطرين : شطراً يريد أن يتخذ من هذه الوصية ذريعة لامتلاك مصر ، مفتاح الشرق ، وشطراً يكتفى ببسط النفوذ الرومانى على البلاط البطلمى فى الاسكندرية .

وكان « پومپيوس » الكبير ممن عطفوا على بطلميوس أوتيلس ،

(*) اعتمدت فى هذا القصص على مراجع أهمها كتاب ارثر ويجل وكتاب كلود فرثال .

والد كليوبطرا ، واستخدم نفوذه ليعود إلى العرش ، بعد أن اضطر إلى مغادرة مصر إثر ثورة دموية اضطربت منها الأحوال ، وانتكست الأمور . فلما أن رجع بطلميوس إلى مصر واسترد عرشه ، أصبح للقائد الرومانى شبه دالة على بلاط الاسكندرية .

ومات بطلميوس أوتيلس ، فتزوج أكبر ابنيه ، بطلميوس الثانى عشر ، من كبرى بنتيه ، كليوبطرا السابعة ، تنفيذاً لوصيته ، وخضوعاً لعرف الأسرة البطلمية . ودارت رحى الدسائس ، يزكيها فُوتِينُوس وأَخِيلاَس وثِيُوُدُوتَس ، ليستأثروا ببطلميوس الصغير الأحمق ، بأن يبعدوا عنه النَّمِرة الصغيرة : كليوبطرا ، أخته وزوجته .

فَرّت كليوبطرا ناجية بدمها إلى حدود سورية ، ومضت تجمع الجيوش لغزو مصر من طريق سينا ، وجمع بطلميوس حشده وتحصن فى قلعة فِلُوسيُوم ، وهى ميناء مصرية حصينة ، تشرف على البحر ، وتقع فى سفح الصحراء المنخفضة المرملة ، على بضعة فراسخ شرقى الموقع الذى تقوم عليه الآن « بور سعيد » . وتأهب الجيشان للجلاد : هذا للهجوم ، وذاك للدفاع .

وكانت كليوبطرا قد أشرفت بجيوشها على قلعة فِلُوسيُوم ، وأخذت تعد العدة للهجوم على قوات أخيها المحتمية من وراء

الأسوار ، وفى المواقع الحصينة القائمة من حول القلعة ، ومضت تزحف حذاء الشاطئ ، حتى لم يبق بينها وبين المدينة إلاّ بضعة أميال . وفى الثامن والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٤٨ ق . م ، وقع حادث ، قُدِّرَ له أن يكون سبباً فى كتابة صفحات جديدة فى تاريخ مصر . فقد رأى الناظرون من الشاطئ ، سفينة حربية ، دارت حول قمة برزت فى البحر غربى فِلُوسيُوم ، وألقت مراسيها على بعد قليل من الشاطئ .

من فوق هذه السفينة وقف القائد پومپيوس الرومانى ، وزوجه كُرْنِلْيَا ، بعد أن هزم فى موقعة فَرْسَالْيَا ، وفرَّ إلى مصر محتمياً بملكها بطلميوس الثانى عشر . ولكن الحالات التى كانت قائمة فى العالم الرومانى ، أوقعت بطلميوس ومستشاروه فى حيرة . فإن مصر إذا حمت پومپيوس ، وقعت فى حرب مع يوليوس قيصر ، عدوه . وإذن يكون فى قتل پومپيوس مَخْلَصاً من هذا المأزق الحرج . وتمت المؤامرة على ذلك ، وقتل پومپيوس . وفى تلك الأثناء هبط يوليوس قيصر الاسكندرية متعقباً خصيمه ، فلما علم بمصرعه ، أراد أن ينتهز هذه الفرصة السانحة ، ليتدخل فى شؤون مصر ، متخذاً من وصية « بطلميوس أوتيلس » ذريعة إلى ذلك . فبعد أن دخل الاسكندرية ، وحط رحاله فى قصرها الملكى ،

أرسل رسلاً إلى بطلميوس وكليوبطرا ، ليوافياه إلى الاسكندرية ، فيصلح ذات بينهما . فسارع بطلميوس ومستشاروه بالعودة ، ليحولوا دون كليوبطرا والعرش بكل وسيلة . ولكن كليوبطرا كانت تعلم حق العلم أن هبوطها الاسكندرية جَهْرَةً بمثابة حكم عليها بالإعدام . فإن أخاها لن يَتَعَفَّفَ عن أن يغْرِىَ بها رجلاً من رجاله ، يقتلها غِيلَةً . فتسللت إلى الاسكندرية ، ودخلتها تحت جنح الظلام مستخفية ، لتبدأ مأساة « الحب الأول » .

***

كانت الساعة حوالى السابعة من المساء ، والملاَّحُون يفرغون من السفن آخر ما لديهم من أحمال البضائع ، على أرصفة الاسكندرية المزدحمة . وأخذت سفائن الصيد تلقى مراسيها سراعًا على مرافئ ثغر « أُونُسْطُوس » Eonostus كأنهن طيوراً عِيقَت عن الرَّوَاح . وبدأ الليل يرخى سدوله السوداء ، عندما تسللت آخر سفينة إلى الميناء ، كأنها تحاول أن تلتفع من الليل بِسِتْرٍ يحميها العيون .

من هذه السفينة ، نزل رجل عريض الأكتاف ، قوى الأصلاب ، وقد اشتمل بعباءة سوداء ، سترت جسمه من مفرق رأسه إلى قدميه ، وشد قلنسوة السفر على رأسه ، حتى سامتت

حَافَتَيْها أذنيه . ثم مدَّ يده فى عناية وتؤدة ، ليأخذ بيد سيدة صغيرة السن ، خَفيفة الخطو كأنها القطاة ، حتى يخيل إليك أنها ماتزال فى طور الطفولة .

بيد أن كليوپطرا لم تكن طفلة ، بالرغم من أنها لم تكن قد حطمت السابعة عشرة من عمرها ، بعد أن أمضت سنتين زوجاً لأخيها ، الذى حملتها تقاليد الأسرة الملكية على أن تتزوج منه ، بعد أن مات أبوها . وكانت شريدة طريدة ، فهى تعود مستخفية تحت جنح الظلام ، مظلة بحماية « أفولُّوذُورَس » — Apollodorus — هابطة الاسكندرية هبوط النسر ، بعد طول التَّجْوَاب ، وقد كسبت من التجاريب قدراً ، قلما حازته من بنات حواء ، من كانت فى مثل عمرها .

وإنك ولا شك تعجب ، إذا حاولت أن تكشف عما انطبع فى نفسها من الأحاسيس والإنفعالات ، لو أنك قرنتها بمثيلاتها من الفتيات . فقد نشأت فى بلاط قضى فيه الفسق والفجور ، على الشرف والعفة ، وهى بعد إبنة « بطلميوس الحادى عشر » ، الملقب أوتيلس — Autelès — ذلك الملك الماوى الخليع المولع بالفنون الجميلة ، الذى أن دلَّكَ شىء على حقيقة خلقه ، فليس أدل عليه ، من أنه وَاجَهَ زمجرة الثورة فى داخل بلاده ، وخطر غزوها

من الخارج ، بمتابعة العزف على قيثارته .

سليلة شعب مثقف على الوجه الأكمل[١] . نبغت فى الأدب والفنون ، وتعلمت على أخص القواعد التى عرفت لعهدها . فكانت نظرة هذه الفتاة الفذة فى الحياة ، عريضة واسعة على غير مثال .

فإن مثيلاتها من الفتيات ، لا يفكرن عادة ، بعد أن يفك عقالهن ، ويخرجن إلى ميدان الأنوثة ، إلاَّ فى أمرين : إما فى تقديس الفضيلة : وإمَّا فى انتهاب الملذات . أما هى فكانت ترمى إلى أن تتحايل ، وأن تحكم . ولقد خصت بقدر من حرية الفكر ، كانت تنظر من طريقه فى الأشياء نظرة ، تُسْلِمُ بها إلى وجوهها الصحيحة .

عرفت ما للرجال من قيمة . فإمَّا أرادت أن تتلهَّى بهم ، وإمَّا أرادت أن تخدم حظوظهم ، فإنها استعانت فى كلتا الحالتين بروح توقدت ذكاء ، والتهبت فطنة ، واحْتَرَّت تشهياً والتياعا .

من ثمَّ أدركت ملهمة بذلك الوحى الذى تختص به العقول الرشيدة ، والقلوب الحسَّاسة ، أنَّ حظًا باسماً يرقبها ، لما أن علمت أن قيصر قد هبط الاسكندرية . ولكن كيف تتصل بهذا الرجل

---

(١) تقصد بذلك الشعب اليونانى الذى انحدرت منه كليوبطرا .

العظيم ؟ وبأية من الوسائل تستغل سلطانه الواسع ، وتفوز بالعضد الذى ينقلها من غيابات الصحراء ووحشة المنفى ، إلى كرسى مصر ، ويرفعها من طريدة إلى . . . ملكة على عرش فرعون ؟

كان الحكيم « أفولُّوذورس » أستاذها فى البلاغة ، وأكبر المشفقين عليها ، سفيرها الذى بدأ المفاوضات . ولقد أظهر « قيصر » بديئة الأمر ، أنه أميل إلى الأخذ بناصر الفتاة المضطهدة ، منه إلى نصرة بطلميوس ، ووزيره اللبق الماهر(١) .

فلم إذن تخالج كليوپطرا الهواجس ؟

كانت تحت رقابة مشددة ، جاهلة بمسالك الطرق ومناحى السبل ، التى ملئت بالعصابات وقطاع الطرق . ولكنها بالرغم من ذلك أقدمت على العودة مصحوبة بعبدين لخفارتها ، وسلكت طريقها إلى كَنُوبَسْ — Canobus — حيث كان ينتظرها « أفُوللوذورَس » . ولقد وثقت من أنها سوف تصل إلى غايتها ، ما دامت مظللة بحماية أستاذها ، محوطة بحنوه عليها ، وإخلاصه لها .

ولم تخل السياحة من خطر . فإنها حذر أن تتجه إليها الأنظار ، أو تأخذها العيون ، وقع اختيارها على أصغر زورق من

---

(١) فوتينوس .

زوارق الصيد ، وقد أشرف مرة على الغرق ، وكادت الأمواج تبتلعه ومن فيه . لذلك شعرت « ابنة لاجوس »[1] — Lagidae — الصغيرة بشعور المرح والإطمئنان ، الذى يخامر من يفلتون من مخاطر الماء ، عند ما وطئت قدماها الصغيرتان المرتعشتان ثرى عاصمتها . . . ثرى الاسكندرية المحبوبة ، وقد نظرت إلى قِبَابِهَا ، نظرة من يعتقد أنها ملك له ومتاع .

أما الخطوة الثانية فكانت الوصول إلى القصر ! وكيف تصل إليه ، ولم يك ذلك بالسهل الهين ؟ فإنه بالرغم من وجود الجند الرومانى ، كان عسس الملك[2] وعيونه فى سهر ترقب . أما إذا عرفت كليوبطرا ، فإنها ولا شك تذهب ضحية لمقت أخيها .

كان « أفُولُّوذُورس » من حسن الحظ ، أريباً قوى الشكيمة ، صُلْبَ القناة . ولقد أدرك ما يتطلب موقفه من مهارة وفطنة ، فَلَفَّ الفتاة فى أسمال بالية ، ورفعها من فوق كتفيه القويتين ، كما لو كانت حملاً من البضائع التى ينقلها الحَمَّالون ذهابا وجيئة ، على أرصفة المرْفأ .

مَنْ ذَا الذى يرى مثل هذا الحَمَّال العظيم ، يسير بخطواته

(١) نسبة إلى جد الأسرة الأول . وكان أول البطالمة يدعى بطلميوس بن لاجوس Lagos .

(٢) جواسيسه .

المتثاقلة المتئدة على أرصفة الميناء ، يئن تحت حمله كما يئن غيره من الحمالين ، ثم يدرك أيّ سر حوى ذلك الحمل الثمين ؟ ولما بلغ باب قصر «البُرُخيُوم»[١] Bruchium عرف الحرس من هو ، ولكنه ادّعى أن قيصر طلب إليه أن يأتيه بصنوف من السجاد ، فأذن له الحراس ، ودخل من باب القصر ، خائفاً يترقب .

* * *

كان «يوليوس قيصر» قد حطم طور الفتوة ، واستمتع بكل ما تحبو به الحياة إنساناً من الفخر والعظمة والملاذ ، حتى لقد كانت أعصابه تَنِمُّ بعض الشيء عن آثار ذلك .

أصابه الصلع وَشِيكاً ، وتغضّن وجهه ، فظهرت بين طيات جلده أخادِيدُ عميقه . فكان صلعه ، وتجاعيد وجهه ، بخطوطها البيِّنة ، دلالتان على كثرة ما قاسى من متاعب ، وآنس من آلام . ولكن أقل المثيرات كانت كافية لأن تبعث من خلال نظراته بذلك الوميض السماوى ، الذى يصقله السناء والإشراق ، وينم عن العظمة والجلال . وما كان لإنسان أن يحتك بقيصر ، من غير أن يشعر بجاذبية القوة والفتنة التى لم يدرك أحد لها من علة ، فقيل إن قيصر سليل إلهَين : أَنْيَاس أبوه ؛ والزُّهْرَة أمه .

---

(١) Bruchium فى اليونانية من معانيها ذراع ، إشارة إلى المكان الذى شيد من فوقه القصر ، وكان بروزاً من الأرض ممتداً فى البحر ، شرق الموقع الأصلى لمدينة الاسكندرية

كان إذا تكلم اجتذبت رشاقة إشاراته ورنين صوته الداوى إنصات السامعين ، وسكتوا كأن الطير على الرءوس ، فكسب عطفهم ، وفاز بتأييدهم ، إلى غير نهاية يعرفها العطف ، أو يقف دونها التأييد . فإذا صمت ، كان صمته فصاحة وسحراً . لأن الناس كانوا يذكرون خطبه الرنانة ، وكلماته الثابتة ، التى تحملها الرياح إلى جنبات الدنيا الأربعة .

أينما سار ، سارت فى ركابه ذكرى أعماله الفذة المُذْهِلَة . فكان الناس يتخيلونه على رأس الفيالق الرومانية يقودها ، فيكتسح بلاد الغَالِ ، وكان أول من غزاها ، ثم يهبط مهاوى جبال الألب السحيقة ، فيجتاز الرُّوبِيكُون Robicon ، ويزحف على رومية ، وقد اتقدت بنيران الثورة ، فتهدأ ثورتها ، وتنحل قواها انحلال الثلوج فى اللَّظى المضطرم ، لَمَّا أن يظهر قيصر فى الميدان .

ولم تقتصر أوهام الناس على ذكر الحقائق ، وتَخَيُّل الممكنات فى حياة « قيصر » ، فخوطوها بالأساطير وسَيَّجُوها بالخرافات . فقد زعموا أن « الجِرْمَان » الذين هزمهم ، أمة من الجبابرة ، فى نظراتهم الموت . وقالوا : إن « بريطانيا » ، وكان أول رومانى أقدم على هبوطها ، تظل فى ظلام دامس ثلاثة أشهر من كل

سنة ، وإنّ جوها مُفعَمٌ بالأرواح . وهذه الأحاديث وما يتصل بها ، زادت صيته بعداً ، وانتصاراته قيمة ، فضخّمتها وملأتها مهابة .

لكى تلجأ إلى مثل هذا الرجل تطلب نصحه وتعضيده ، عمدت كليوپطرا إلى الكلام بعض الشىء فى حقوقها الطبيعية . بيد أنها لم تكن من الحماقة بحيث تؤمن بأن حق المرأة ، مهما كان شأنه ، ومهما علت قيمته ، هو غاية ما تلجأ إليه من وسائل الإقناع .

لما أن خرجت كليوپطرا من الأسمال التى حجبت مفاتنها منذ هنيهة ، تملكها شعور أشبه بشعور حيوان صغير أفلت من الأسر . وبجمّاع ما فى المرأة من غريزة الغَيْرَة واستِعَار الحرارة ، اجتذبت مرآة فضية ، كانت معلقة بزُنّارها .

يا لها من فوضى ، تلك التى رأت فى هندامها ! كان معطفها مثنًى كثير التجاعيد ، وقد تدلّى شعرها المرسل على كتفيها كستنائيًّا مموّجًا . بل لم يبق أثر للكحل من حول جفونها الوَسْنَانَة ، ولا للخضاب الأحمر فى شفتيها أو على خديها .

ولكن ... أكانت هذه المدعية ، وهى على وشك الظهور أمام القاضى الأعظم بعد لحظات قصار ، أقل ازدهاراً أو تورداً ، أو أقل بهاء أو سلبًا للألباب أو تحييراً للأفكار ، أو أقل رشاقة وفتنة ، مما يتطلب موقفها ؟

كانت مشفقة وجلة على كل حال .

مضت تترقب كيف يلاقيها الرجل الذى اعتاد أن يَخْتَلِبَ الرومان . ذلك الإنسان الفذ الذى اضطر الناس ، من أشدهم استمساكاً بالفضائل ، إلى أكثرهم تطوحًا مع الرذائل وإمعاناً فى الفساد ، أن تعنو له وجوههم ، وتَذَلُّ له رقابُهم . ذلك بأن شهرة قيصر كانت عالية ؛ فى زمانٍ تقطعت بالعالم المعمور أسباب الاتصال . ولكن الجميع كانوا يعلمون حق العلم ، أن ذلك الفَحْل العظيم ، الذى جمع نبوغه بين صفات القائد والكاتب والمشرع والخطيب فى أعلى مراتبها ، وأرقى ذرواتها ، كان إباحيا فاسقاً . فبالرغم من المنكرات التى ينغمس فيها الشباب ، وانغمس فيها قيصر مزهوًّا بما فى الحياة من فرح ومفاتن ، فإن غزواته ومخاطراته ، قد أدت إلى أحزان عميقة ، خيَّمت على كثير من البيوتات الكبيرة ، وبخاصة على بيوت الكثيرين من أصدقائه .

ولم لا ؟ ألم يقترن اسم « قيصر » فى العالم الرومانى بقولهم :
« قيصر زوج كل النساء » — omnium mulierum veri .

ولقد ملأ كليوبطرا الروع لغير ضرورة . فإن طَبْعاً يتشهَّى الجِدَّة ، ويحن إلى التغيير ، وينزع إلى الابتكار والشذوذ ، ويتحرق إلى مخاطرات جديدة ، وأعصاباً منهوكة متعبة كأعصاب

« قيصر » ، لن تألف من شيء ، أَلْفَتَها منظر الملكة الفتية الفاتنة .

ولقد شعر « قيصر » بهزَّةٍ عميقة ، يتعذر وصف أثرها ، سرت فى شرايين جسمه ، منذ أول نظرة أَخَذَ بها تلك القطعة الحية من فن الطبيعة . على جسمها الجميل المتسق ، وقوامها الأهيف ، وحاجبيها المرتخيين فى استقامة واعتدال ، والأشعة النَّفَّاذة المنبعثة من عينيها ، وأنفها الدقيق الشهى ، وشفتيها المنفرجتين الموحيتين بالشهوة ، وبشرتها اللّامعة الكهرمانية ، التى تغرى المرء بها ، إغراء فاكهة مفرطة الطيب ، لوَّحتها الشمس .

يا للآلهة ! لقد عجز الغرب كله ، كما عجزت رومية بعذاراها الفاتنات المغريات ، عن أن تهبه شيئاً أشد من كليوبطرا اختلاساً للنُّهى ، أو اختلاباً لُلُب . فسألها وفى نفسه لوعة تقسره على أن يستجيب لأيِّمَا تقول وتطلب ليصل منها إلى غرضه : « ماذا فى طوقى أن أفعل من أجلك ؟ أى شيء تطلبين ؟ » .

فأجابته كليوبطرا مغرية فتانة ، وبلغة لاتينيَّة فصيحة كانت تجيدها ، كما تجيد اليونانية والمصرية والسورية وعدة لغات أُخَر ، ووصفت فى بلاغة ، عنف الاستبداد الذى قاست منه الأمرَّين ، والإجرام الصارخ الذى بدَّلها من تاج الملك طردًا وتشريدًا ؛ وقالت قول الواثق المستودع لسر رهيب ، وفى قالب كله إغراء ،

إنها تلجأ إلى قيصر القاهر ، عسى أن يرد لها تاجها المغتصب المفقود !

وكان صوتها حلواً أخَّاذاً ، حتى أن الأخبار التى روتها ، وحقوقها التى اغتصبها أخوها الغادر الخدَّاع ، قد نزلت ، تَفِيئَةَ أن خرجت عباراتها من بين شفتيها ، من قلب « قيصر » منزلة الحقائق التى لا ناقض ولا رادّ لها . وكيف لا تقع هذا الوقع من نفس ذلك القاضى الفيصل الشجاع ، وقد فتنه ذلك الوميض السماوى ، الذى بعثته عيناها الساحرتان ؟

ولقد هَمَّ « قيصر » أن يمنحها كل سُؤْلِهَا . غير أن عقبات تقف فى سبيله . فإنه هبط مصر صديقاً وحلَّ بها ضيفاً ، وليس له فيهـا غير عدد قليل من الجند ؛ فى حين أن جنـد بطلميوس فيالق منظمة ، وعلى تمام الأهبة للدفاع عن عرشه وعن ملـكه . فيجب إذن أن يستعلى النهى على الطيش ، وأن يستقوى العقل على المشاعر . لأن «إطلاق كلاب الحرب من حظائرها ، لم يحن حينه» .

أما « كليوبطرا » فقـد حاولت فى حماسـة مشبوبة النار ، ولـكن بكل ما يتطلب الموقف من اتزان الحكم والرويئة ، عجيب أن يكونا لفتاة فى مثل عمرها ، أن تَمَسَّ « قيصَرَ » نيرانها المتلظية . فإذا كان « قيصر » عاجزاً عن أن يعلن الغزو تواً ، إذن فَلْيَدْعُ

زحفه على عجل ، وفى أقرب وقت ممكن ، وفى انتظار الجنود يعلن ارتقاءها ملكة على عرش الفراعنة .

وبينا هى تتكلم ، كان قائد رومية ورجلها الأوحد ، عاجزاً عن أن يحول نظره عنها ، ملاحظاً كل إشارة من إشاراتها المتسقة ، مُصْغِيا إلى كل كلمة تخرج من بين شفتيها .

« كليوپطرا — يالك من خليلة معبودة » .

ذلك ما جال فى خاطره ، لما أن استروح عبق شعرها الكستنائى المتهدل من فوق كتفيها .

ولقد استيقنت « كليوپطرا » من أنها غزت العاهل الأعظم ، وأنه أصبح مقوداً إلى أن يفعل ما تريد ، فساورتها هِزّة أفعمتها لذاذة ، وحدثها القلب حديث الهَسِّ الخفى :

« عما قريب سأكون ملكة » .

لما علم بطلميوس الثانى عشر ، أن أخته التى اعتقد أنه تملص منها قد هبطت الاسكندرية ، وأن « قيصر » قد أقسم ليردّنّها إلى العرش ، أخذته نوبة من تلك النوبات التى تساور الحمق المنحدرين من سلالة دبّ فيها الفساد ، وتمشى فيها الانحلال ، شأن البطالمة فى أخريات أيامهم ، وصاح من أعماق نفسه

« يا لَلْخَائنة » ! وركل زهرية من « المُورَا »[1] الثمينة رائعة الجمال ، فحطمها وتطايرت شظاياها .

« لقـد تحايلت علىّ ! إنّ القرار الذى اجْترأت على إعلانه ، خيانة ملعونة » .

وما لبث أن عهـد إلى « أخيلاس » بقيادة الجند ، وأعمل السيف ، فقتل الحرس الرومانى .

كان هذا الحادث نذيراً بحرب سوف تندلع ألسنتها . وكان من الظاهر أن « قيصر » تناصره كل قوى الجمهورية الرومانية سوف ينتصر فى النهاية . غير أن هبوب رياح التمرد والثورة ، ولم يكن جنده مدربا على معالجتها ، قد أحدث أول الأمر حالة ، من الصعب الاضطلاع بملابساتها .

* * *

ليس من الرشـــد فى شىء أن يشتبك جند « قيصر » فى مناوشات تقع فى شوارع الاسكندرية وساحاتها ، وفى ظروف غير مواتية ، من غير أن يفكر فى موقفه هذا . وكان الرشد فى أن يتحصن وجنده خلف أسوار قصر « البُرُوخيُوم » . فإن هـذا القصر بأسواره المنيعة ، وجدرانه القوية ، وقبابه الشم ، صالح

(١) المورا — Murrah — حجر أو مادة ثمينة كان يتخذ منها الرومان أوان أو كؤوساً نادرة غالية الثمن مقطوعة المثال .

لأن يتخذ عند الضرورة قلعة يلوذ بها الحرس الرومانى مدافعاً ، حتى تصل جنود « قيصر » ، فتنقلب الآية .

أمّا أن تسجن « كليوپطرا » مع الرجل الذى كانت تحيك من حوله شبكتها لتأسره وتستعبده ، بل لتسلب منه كل قوة على التفكير فى هم من هموم الدنيا ، اللهم إلاَّ مصالحها وذاتها ، فذلك غاية ما تشتهى ، ونهاية ما يتجه إليه خيالها ، وتسبح فيه أحلامها .

كان قصر « البروخيوم » من الآثار التى خلفها الاسكندر ، ثم زاد إليه أخلافه . وكانوا ، كما كان الفراعين من قبل ، ذوى شهوة للبناء والتشييد ، ولكن بفنٍ أعلى ، وذوق أرفع وأنْعَم .

وقد تربع ذلك القصر من فوق ربوة عالية تشرف على سلسلة من التلال تنحدر هابطة تحت قدميه الواحد تلو الآخر ، حتى تُغيِّبَ فى البحر . فكان من فوق ذلك الكرسى العظيم ، بقبابه وأروقته وأجنحته الضخام ، أشبه بمدينة يناجيها الماء ، وتغازلها السماء .

هُوَ كِنٌّ للجمال وحصن للحرب ، ليس لعظمته من مثيل فى أقطار الدنيا ، فقد جمع بين ضخامة الفن الفرعونى ، ورواء الفن الإغريقى ، وجماله وخيالاته وأحلامه ..

وكان الجناح الذى خصص للملكة الصغيرة قد لقى من عناية « بطلميوس أوتيلس » أبيها ، ما جعله خليقاً بمنزلتها من نفسه ، ومحبتها من قلبه . ولقد أحب « أوتيلس » كل نادر وكل جميل . ذلك بأن ذوقه الموسيقى ، جعله يحِنُّ إلى صفاء الفن الهندسى ، حَنِينَه إلى أُلْفَةِ الأنغام :

ولقد ظهر آثار ذلك كله فى ما زوِّد به جناح القصر الذى خصص لإبنته ، من بدائع الخيال ، وروائع الفن . ففى كل زاوية أثر من فَنَّان . أثر من « مِيْرُون » أو إفْرِقطِيلس » أو « فدياس» فتلك ثريَّات جملتها الأقواس ، وزينتها المنحنيات ؛ وهذه مقاعد أفرغ عليها الفن جمال القطع والتخطيط . ناهيك بالمباخر التى يصعد مع دخانها أنقى العطر ، وأشهى الطيب ؛ والطنافس التى ازدانت بنقوش عليها من جمال الطبيعة مسحة ورواء . أما الخزائن فكانت من العاج النقى ، ترهقه طبقة من الذهب الخالص .

وما كنت لتقع على حجرة أو بهو أو منعطف أو زاوية ، إلاَّ وتأخذك نشوة من المرح ، وهزة من الغبطة ، حتى ليخيل إليك وأنت فى صحوك ، أنك فى عالم من الأحلام ، قوامه حسن الصورة ، وجمال الألوان وتفانى الظلال . وجملة القول أن كل شىء هنالك كان قد أعد للإغراء بالدنيا ، وتحصيل لذة العيش ومتعة الحياة .

عامة ذا ليس بشئ إذا قرن بجمال الحدائق الغناء التى كانت تحيط بذلك الصَّرْح العظيم . تلك الجنان الوارفة التى لن تظلّها من سماء ، غير سماء مصر الصافية .

كانت نسمات البحر تهب عليها عليلة ، فإذا اختلطت بعبق الأزهار ، أيقظت الروح وأيقظت الجسم . وهنالك بين الأشجار الملتفة يقوم مرتفع من فوقه آخر إلى غير نهاية ، ورباطها جميعاً درجات من المرمر الناصع البياض . وقد نامت فى أحضانها بحيرات صُغَيِّرات ، تغذيها نوافير بماء نمير كأنه البلّوْر المُصَفَّى .

ما أشبه هذه البحيرات بالأحلام ! كانت إذا غازلتها نسمات البحر تَغَضَّنَتْ قليلا ، ثم تساوقت غصونها مويجات ، حتى تغيَّب متكَسِّرة على حَافَاتِهَا كأنها الأجْنحة المهيضة . تلك يقظتها . . . ثم ما تلبث أن تعود إلى الأحلام .

من تحت تلك المرتفعات تمر أنفاق تزود القصر والحدائق بماء النيل ؛ وفى ذلك سر النَّماء ، وسر الحياة ، التى كنت تأنسهما مندفقين فى مَعين تلك الجنة الظليلة .

أشجار دائمة الخضرة جُلِبَت من مناطق إقليمها أكثر من إقليم مصر اعتدالا ، وأخرى من التين والنخيل ، خط الإستواء مربّاها ، وقفت هناك مشرفة بهامة الجبار على بحر الرُّوم . وأزهار

تفتحت أكمامها عن جمال فيه نضارة ، وفيه اتّساق عِلّتُهُ تباين الألوان . هى نوارت مختلفات ، وأُخَرُ متشابهات ، حملتها شجيرات منبتها بلاد فارس أزواجا بهيجة ، أزرت بما كان فى حدائق « إقْبَطَانَة » على شهرتها التاريخية . كلا — بل بما كان فى حدائق « بابل » .

من تلك الورود أنواع تسلقت جدران القصر حتى ساوت حجرة الملكة الحالمة ، المغمورة فى شهواتها ، المجنونة بمطامعها .

أى مطمع ذاك الذى يملأ قلب « كليوپطرا » ؟ أيكون لهذه الثائرة المتمردة من مطمع ينزل عن رومية ؟ رومية وحدها ! هى مطمحها . أنها لا تطمع ، بعد أرض الفراعنة ، فى أكثر من أرض الرومان . . . ولكن .

هنالك من نافذة القصر ، أطلت زهرة يانعة تجلت فى نَورِيَّاتها قوة الحياة والإشراق ، ومن تحتها وعلى فريع صغير ، زهرة ذابلة .

الأولى حمراء بلون الدم . أمّا الثانية فصفراء باهتة .

تطلعت إليهما « كليوپطرا » . فذكرتها الأولى بالحياة . أما الثانية ، فبأى شىء توحى ؟

يَا لهَا من أحلام .

***

أ كان عجيب من ابن « الزُّهْرَة » ، ذاك الذى حملته حاجات الحرب ، ومطالب الضرب والقتال ، على أن يَصْمِد صابراً على رمضاء الشرق حيناً ، وعلى زمهرير بلاد الهمج الذين يقطنون أقصى الشمال حيناً آخر ، أن تأخذه فى محيطه الجديد نشوة تسكره بلذاذات ذلك القصر وتلك الملكة ؟

لقد اتفق كل شئ من حوله على أن يزوده بنعائم حياة قلَّما أَلِفَهَا ! نعائمُ تتوجها مفاتن « كليوپطرا » وشبابها وسخريتها من الدنيا ومن الأحداث . ولقد أحبها « قيصر » لأول نظرة حبًّا أَلْهَبَتْهُ شهوة حارة ، هى أشبه بذلك اللظى الرائع الذى تجلو به الشمس سماء الخريف ، بعد أن يموت الصيف ، وتلبس الأشجار حلتها الزاهية ، انتظاراً لنوم الشتاء الطويل .

ولقد استجابت « كليوپطرا » لنداء الحب ، ولبت داعى شهواتها ، فألقت بنفسها فى أحضان اللذة غير وانية . فالحرمان والنفى ، والخوف من أن تعود سيرتها الأولى طرداً وتشريداً ، كل هذا جعلها تحرق شوقا إلى تذوق السعادة ، وانتهاب لذائذها . ومن غير أن تسأل « قيصر » عن طبيعة ذلك الحب الذى كان يغمرها به ، ومن غير أن تفكر هُنَيْهَةَ فى بواعث الأنانية التى تكمن من ورائه ، دلفت إلى حياة اللذة ، مأخوذة بنشوة انتصارها وتسودها .

ولِمَ لاَ ؟ لقد كان لها فى تلك الحال أن لا تفكر ، وكان لها أن لا تشفق من شئ أو تخاف شيئا ، ما دامت راضية بكل ما يحوطها ، قانعة بأن تظل بين ذراعى «قيصر» ، ما ظلت «مصر» بين ذراعيها .

كم تمنت أن تقع على من يحميها ! وهاهى ذى ، قد وقعت على الرجل الذى يحميها ويحبها بحرارة ولوعة .

من فوق سفينة القدر التى ألقت مراسيها على الشّطآن المهجورة ، أسلمت « كليوبطرا » قيادها ، وعهدت بحمايتها ، إلى ذلك الرجل العظيم ، وكأنها ألقت بروحها إلى قوة من قوى الكون الخفية ، التى لن يفكر إنسان فى تحليل عناصرها ، أو تعليل حقائقها . ولئن لم يكن حبه قد أثار فى قلبها حباً مثله ، لكفى أن يبعث حب قيصر القاهر فى روعها شعوراً بالفخار والعظمة ، وأن يُحْيِىَ فيها آمالاً تفعمها ، فلا تترك فى نفسها محلاً لأمل آخر تصبو إليه ؛ فغرقت فى أحلام حملتها على أجنحة الخيال إلى مستقبل رائع عظيم ، وطارت فى عالم الغيب ، حتى خيل إليها فيما يُخَيَّل ، إن سفينة القدر قد أقلعت بها إلى غاية ، إن جهلت ماهيتها ، فإنها ولا شك باهرة ، ما دام قيصر ربّان سفينتها .

***

وبالرغم من أنَّ أصوات المَنجنيقات، وصخب العدد الحربية، حَوَالَى أسوار قصر « البُرُوخْيُوم » ، كثيراً ما كانت تصل سمع العاشقين، فقد مرت عليهما الأيام هنية رخيَّة، فلم يعكّر صفوهما دخيل ، ولم يفكرا فى شئ، إلاَّ فى إن يكون كل منهما مبعث سعادة لصاحبه . حتى إذا انصرفا عن كل شئ فى الدنيا ، أقبلا على حديث الحب ، وما إلى الحب من أحاديث. ولقد حققا بذلك مثلاً أعلى كثيراً ما نشده العاشقون عبثاً وتخيله المحبون تخيُّلاً . مثل العزلة الكاملة، تظلل بسلامها العاشقين .

وأخذت الجيوش التى أرسل « قيصر » فى طلبها تفد على مصر . فجاء من « قِيلِيقيّة » ومن « رودس » سفائن مثقلة بالرجال والميرة، وشرعت كفة الأسراء ترجح كفة الآسرين . ولم يلبث العاشقان غير بعيد حتى أصبحا القوة المحتكمة التى تكيّف الظرف بحسب ما تشاء . وقد أمدتهما بلاد « الغال » بكتائب من المشاة، ورومية بأثقال من عتاد الحرب . وتمت الأهبة للجلاد ، بعد أن قدم « كَلْفِينُوس » على رأس كتائب قوية تامة العدة من الفرسان . وسرعان ما رفع الحصار الذى طال أمده ستة أشهر ، وانتقل ميدان الحرب إلى الرِّحاب .

وكان جيش « أخيلاس » أقوى مما قدر « قيصر » ، وأوفر

عُدَّةً . بل لقد كان لما أبدى قائده من المهارة والدربة فى فنون الحرب ، أثراً كثيراً ما زَجَّ بقيصر فى أحرج المواقف . ولكن « قيصر » ومن ورائه رومية كلها ، بقوتها ومالها وانفتها ، لا بد من أن يصل إلى النصر ؛ وأخذت بُدَاءةً المُنْتَهَى تظهر بوادرها ، لَمَّا أن ساق « قيصر » جيوشه عَبْرَ الدِّلتا .

ومن فوق الأرض التى هى هِبَةُ النيل ، من فوق الدلتا المقدسة ، ثارت عجاجة الموقعة الفاصلة ، فَهُزِمَ جيش بطلميوس . كلا . بل ارتد فى غير نظام ، حتى ارتمى فى أحضان النيل ، ومزِّق تمزيقاً .

ورأى بطلميوس أن لا مناص له من الموت . فاقتبل النيل وغمز جواده غمزة قوية ، فانطلق كالسهم إلى غمر النهر الفائض ، ليكون مركبه إلى عالم الأرواح .

بهذا حكمت الأقدار . ولكن « قيصر » كان أرفق بأعدائه منها . فقد عفى عن « أخِيلاَس » بعد أن قيد أمامه فى الأغلال . لقد اكتفى « قيصر » بهزيمة أعدائه ، وارتد عجلان صوب الأسكندرية .

* * *

هنالك من الطابق السابع فى برجها العظيم ، ارتقبت « كليوپطرا » عودة قيصر . فلما اكتحلت عيناها بمرآى النسور

لرومانية لامعة فى وهج الشمس ، دق قلبها دقات شديدة قوية ، فقدت كل صبر عن لقائه ، فأمرت بهودجها وقالت لحملته : « اسرعوا » .

فانطلق بها اثنى عشر عبداً من عبيدها الأحباش ، والعرق يتصبب من جباههم ومن فوق أرجلهم الأبنوسية ، وهم يودون لو مُكِّنَ لهم أن ينهبوا الطريق نهباً .

ولقد أرسل الصقر الذهبي القائم من فوق هودجها وهجاً لامعًا ، وعكست ستائر المخمل الأرجوانية المعلقة بجانبية لونًا شديد الحمرة ، جعله مرئيا من بُعْدٍ . وعندُ أول إشارة آذنت بأن « كليوپطرا » قد وصلت إلى مكان الزحف المنتصر ، ترجّل « قيصر » بخفته المعهودة ، وعليه مخايل الفروسة التي لا تفارقه ، ومضى يحيِّي حبيبة قلبه وروحه . فقد أمضى أيام بعيداً عنها ، وقد شاقه حبها ، وتمنى أن يضمها إلى صدره ضمة ، يفرغ فيها كل لوعته ، ويعبر بها عن جُمّاع صبابته .

« إن مصر لك . إنى ما غزوتها إلاّ لألقى بها عند قدميك . فاقبليها » .

وألقى إليها بمفاتيح الاسكندرية ، وكان « أخيلاس » قد سلمها إليه ، عقيب الهزيمة .

منذ تلك الساعة، عرف الثوار قدر رومية، وأحسوا بطشها وعظمتها، وأدركوا عمق الهاوية التي حفرها من ورائهم « فوتينوس » . فلقد انتكست آمالهم ، وتبدلوا من مطامع الأمس الذهبية ، بيأس اليوم المرير . أما أولئك الذين نزعوا إلى الانتقام والثأر من قبل ، فأصبحوا لا يطمعون فى أكثر من عفو يبقى الرؤوس التى ملأتها الخيلاء ، قائمة من فوق الأكتاف ، بعد أن ترنحت وكادت تطيح بها الأقدار !

من ذا الذى يجرؤ على أن يناقش فى حق ملكة وضعها « قيصر » ، رجل الدنيا الأوحد ، من فوق العرش ؟ كلا . ليس هنالك من إنسان رَخُصَتْ عليه رأسه ، حتى يناقش فى هذا . ولقد قوبلت « كليوپطرا » ، لَمَّا أن ظهرت للناس أول مرة ، بهتاف النصر والخضوع ترسله حناجر الجماهير ، وقد غصت بها طرقات الأسكندرية .

شكراً إذن لتلك الحرب التى ما أثارها إلاّ حب « قيصر » ؟ فكانت أُلْهِيّة من ألْهِيات رجولته . غير أن لهو « قيصر » قد ردّ إليها تاج آبائها العتيد .

ولقد أرادت « كليوپطرا » أن تحوز رضا الناس وتفوز بثقتهم ، فعملت على إحياء تقاليد الأسرة التى كانت تقضى على

المَلِكَات بأن يكون لهن أولاداً من صلب العِتْرَة الملكية ، فأعلنت قبولها الزواج من أخيها بطلميوس الثالث عشر .

* * *

كان كل شيء قد تَمَّ على ما يرغب قيصر ، وآن له أن يغادر مصر إلى رُومْيَة ، حيث ينتظر حزبه أوبته بلجاجة . ولكن « قيصر » لم يصبح سيد نفسه . فقد شملته الشهوة . تلك الشهوة التى ظَلّت حتى أخريات أيامه ، النبع الوَحِدَ الذى صدرت عنه كل أعماله ، فقدَّمها على واجباته وعلى مطامعه وعلى مصالحه العامة والخاصة ، وجرَّته إلى آخرته المحزنة . فأجَّل الرحيل ، وتصامم عن النذر التى كان ينقلها إليه كل رسول يهبط مصر موفداً إليه من رُومْيَة ، وألقى بسمعه إلى فاتنته ، فاستجاب لها ؛ ولقد ألقت فى روعه ، فوق ما ألقت من قبل ، أن من تمام سعادتها أن يرافقها فى رحلة يجوبان فيها مصر ، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب .

كانت السياحة فى تلك الأيام على ظهر النيل ، كما هى اليوم ، ومنظر الآثار التى خلفها الفراعين قائمة على ضفافه ، منتَجَعاً للفكر ، وسلوى للنفس : وكان ملوك المال من النبلاء ، وأمراء الشرق الفائض بالثروات الضخمة ، ورجال الفن من الأغارقة والأسيويِّين ، بعد أن يتمتعوا بلذائذ الأسكندرية ، ويقفوا على

آثارها ، يُيممون شطر مصر العليا ، ممتطين سفائن هيئت بكل ضروب الزينة والزخرف ، يحملها النيل ، وتظلها سماء مصر الصافية الباسمة . وكانت الرحلة تستغرق أسابيع ، ينفقها السائحون منتهبين اللذائذ ، أو مكبين على درس الآثار القديمة الخالدة .

وكانت سفينة « كليوپطرا » بمثابة قصر ، عرشه الماء . وقد صنعت حجراتها وأبهاؤها على غرار قصر « البروخيوم » مصغَّراً . أما الأسطول الذى اختارت الملكة أن يكون فى رفقتها ، فقد حَمَلَ عدداً عظيما من الحاشية والخدم والعبيد . ناهيك بالراقصات والشعراء والموسيقاريين ، الذين عملوا جميعاً وجهد ما يستطيعون ، على أن يقتلوا الوقت قتلاً ، ويبددُوا الزمان تبديداً ، حتى تصبح الحياة فى تلك الرحلة ، سلسلة متصله من الأَحلام الهنية .

وكان الشتاء على الأبواب . وقد يعرف الذين شهدوا الشتاء فى الأقاليم الشمالية من كرة الأرض ، أن هذا الفصل يغمر الناس بكسفه المدلهمة ، ويغشى على الحقول بغشاوة من الحزن ، ويذر الأشجار عارية من الأوراق . فإذا دهمتها الرياح اهتزت أماليدها المعرّاة هزات فيها كل تعابير اليأس والقنوط . ولكن الطريق التى سلكها العاشقان ، كانت طريق التألق والإشراق . فالسماء صافية ، والشمس منعشة وهاجة ، ومياه النيل تنساب فى سكون

« كأنها الأمل العريض ، فى وحشة الفراق » .

وشقت سفينة « كليوبطرا » طريقها فى النيل ، بخمسين مجذافاً من خشب الأَبِنُوس الخالص ، فى يد خمسين عبد نوبى ، أشداء أقوياءِ الأصلاب . فانسابت متهادية ، تظللها الحرية ، وتحدوها السعادة ، وتنبسط أمامها الرِّحاب تتلقاها بالرَّاحَتَيْنِ ، لتسلم بها إلى أرض الميعاد ، والشمس من فوقها تزداد حرارة ، كلما أمعنت السفينة نحو الجنوب ، كأنها تُحَيِّ العاشقين تحية صامتة ، مرسلة إليهما على أجنحتها الذهبية .

وبعد أن تهادت السفينة عدة أيام من فوق النيل المقدس ، تخلفت من ورائها فراسخ عديدة كستها الخضرة الزمردية ، وأضفت الطبيعة على أشجارها بهاء اللاَّزَوَرد ، دلفت فُجَاءةً إلى رحاب أخذت خضرتها تقل شيئاً بعد شىء ، وما لبثت غير قليل حتى أصبحت بين شاطئين قاحلين ، لا يأتى النظر فيهما ، مهما امتد ، على غير رمال صفراء ، وتلال تناثرت من فوق تلك الرقعة الفاقعة اللون ، التى تتواصل أمام النظر حتى تلتقى بالأُفق ، كسلوك زِرْيَابِيّة ، تندفق فى بحر من اللُّجَيْن . وقد رُصِّعَت تلك الرمال بأدغال من شجر العود ، تمايلت أوراقها النصلية تمايل النشوان الثمل ، أو بحرجات من النَّخيل كلَّلَتها الأَخواص الريشية ؛

فيخيل إليك أنها مشاعل أعدها عِفْرِيَةٌ من الجن ، لتنير تلك البيد المترامية ، إذ ما انفجرت رءوسها عن لهب عظيم .

فلما وصلت السفينة تلقاء « ممفيس » ، أشرفت على هيا كل قامت كتلها الصخرية من فوق عمد عظام ، وقصور ذات قباب بيض ، زادت الشمس شهبتها بهاءً ، وأبواب كأنها قطع الجبال ، وقد أطلت جميعاً على النهر الأقدس ، فانعكست صورها على صفحته النحاسية .

وألقى المسافرون عصا الترحال أزاء الأهرام . فأعجب « قيصر » وحق له أن يعجب لتلك القوة العظيمة ، والمهارة الفائقة التى أعْتَدَت من الحجر الصامت ، قبوراً تنطق بعظمة الماضى . أما الذين هم من شيعة « أفلاطون » ، أولئك الذين لم يأبهوا بحاجات البدن ولذائذ الجسم ، واعتقدوا أن الخلود إنما هو نتيجة للجمال الذى تحسه الروح ، والهدوء الذى تأنسه النفس ، فقد ساءلوا أنفسهم ! أية فكرات تلك التى حَوَّمت فى وجدان « خوفو » و « خفرع » وأترابهما ، عن سر الحياة وسر الموت ؟ أكان اعتقادهم أن الموت هو الحياة فى عالم آخر ، ليست حياة الأرض إلاّ وسيلة تسلم إليه ؟ أرفعوا القواعد من هذه الأجداث العظام تحية للموت ؛ أم أرادوا أن يَتَحَدُّوا الفناء ، ويسخروا من

البِلَى ، فشيدوا تلك المُثَلَّثات الباقيات ؟

لقــد تناثر من حول « مِمْفيس » كثير من الآثار السّاحرة التى خلفها القدماء فى السهل المنبسط من وراء المدينة . ولــكن « أبا الهول » كان أبعثها على التأمل وأدعاها إلى العجب . ولقد ترغب « كليوپطرا » إلى « قيصر » ، محبها وحاميها ، أن يُقَايِس بين ملامحها الناعمة ، وملامح « أبى الهول » الجهم العظيم ، لعله يقع على أوجه من الشبه بينهما .

وأخذت الشمس تتوارى من وراء تلال « لوبيا » ، بعـد أن أشرف المحبان على « أبى الهول » !

ما أشبه ذلك المسخ العظيم ، قابعاً من فوق فراشه المرمل ، بهولة من الهول الأسطورية ، شرعت فى الانفلات من أمواج بحر لجيٍ ؟ ها هى تقتبل الشرق ! وقد ارتسمت على فمها ابتسامة ساخرة كادت تغيب فى الظل المعكوس عن الشـمس الغاربة ، وارتمت على ظهرها الأحوى خيوط من الأشعة الباهتة ، فلابستها صورة حى من الجبابرة العظام ، حَطَّ فى تلك البُقعة فُجَاءَةً ، فَذَرَى جلاميدها أَبَاديد .

لقد استوحى « أوديپوس » من قبل مسخاً كأبى الهول . استوحاه مشفقاً ممـا تخبئ الأيام . أمّا وإن « قيصر » القاهر ،

عاهل الرومان وسيد الدنيا ، ما زال يسبح فى بحر الحياة اللجى ، والليالى من حوله تذهب الواحدة تلو الأخرى مثقلة بالأحداث ، فعليه أن يقف أمام الرمز المصرى مطرق الرأس خاشع البصر ، مكتنف النفس بشتى الحسوس المتنافرة ، لعله يحظى منه بشىء ينير سبيله فى الحياة !

أمجيب قيصر أنت ياسر الأسرار ؟ كلا . ما فاز أحد قبل « قيصر » منك بجواب . وما كنت تخشى عظمة قيصر . فإنها عظمة يخشاها الفانون وأنت من الخالدين . ولكن لا . فبرغمك أجبت « قيصر » ، وبرغمك أجَبْتَ غيره من أبناء الفناء . وإنما كان جوابك تلك الإبتسامة السحرية التى ظلَّت تسخر من الشعوب والأمم والأقدار .

ولقد غشيت « قيصر » غاشية من التأمل والفكر ، فرت بخياله ذكريات رومية وواجباته ومكانته من الدنيا الحافة به ، وما فى القيصرية التى يحميها من متضارب الأغراض وكامن المطامع التى لا يقمَعُها إلا قيصر وحده ؛ وأخذ يصيخ بقلبه إلى موحيات ذلك الحَسِّ النفسى العميق . ولكن ذراع النّمرة المصرية طَوّق « قيصر » ، فاستفاق من غشيته ، وتطلع فرأى القمر يبزغ من وراء الرمال محمر اللون ، كأنما هو نفس من

أنفاس الليل ، فأنساه حديث النفس ، وصرفه إلى حديث الحب مرة ثانية . ذلك بأن الحب كان قد أخضع « قيصر » وتملَّك حواسه جميعاً ، فأعماه عن كل شيء إلاّ عن « كليوبطرا » ، وأصمَّ أذنيه ، إلاَّ عن حديث قلبها .

* * *

فى اليوم الثلاثين من بدء الرحلة ، بلغ العاشقان جزيرة « فيله » ، تلك الدرة العصماء التى يحويها الأخضران : الماء والسَّماء . ولقد رقَّ كلاهما وشفَّ ، حتى لقد يتعذر عليك أن تقضى أيهما ظل لصاحبه . ولا غرو ، فلقد كانا مصدراً للوحى الذى استلهم منه الشعراء على مدار العصور . ولقد حط كل من بلغ « فيله » رحاله فيها غير طامع بأن يحظى بفردوس آخر من فراديس الأرض . فهنالك ضرب المفتُّون مَخَايِمَهُم ، وألقوا العصا على بساطها السندسى ، قانعين بأن ينعموا فيها بعبادة الجمال ، ناسين كل ما آنسوا من آلام الحياة فى غيرها من رحاب البسيطة . وقليلاً ماهم ، أولئك الذين سعدوا بهذه الأمنية المنشودة .

ذلك بأن جزيرة « فيله » كانت ملكا لـكهنة « إيزيس » منـذ أزمان لا تعيها الذكريات . وكانوا يعتقدون أن دخول غيرهم فيها ، تهجماً على حرمتها وتدنيساً لقداستها . ولقد كان لهم

أن يتيهوا على الناس عجباً ، ويملؤوا الأرض فخاراً ، بأنهم حفظة هيكل أفرغ عبدته عليـه من المال ما جعله أغنى هيا كل مصر جميعاً ، على فرط غناها ، وتالد عزها . وزاد فى نفوذهم أنهم احتموا بالآلهة المحبوبة ، فحظروا على أى كان من الخلائق أن يمد إلى أمورهم أصبعاً ، أو يتطلع إليها بطرفة عين . فاستأثروا بموارد الهيكل ، وحجبوا غيرهم عنها ، أنفة واعتزازاً .

وجرت العادة فى كثير من الهيا كل والمعابد ألاّ يشوب صفو العبادات والمناسك فيها شائبة من الدنيويات . لهذا رأى الناس فى مقدم الأسطول الملكى فرصة ينفسون بها عن أرواحهم المقموعـة ، وأخيلتهم المكبوتة ، فخرجت إلى عرض النيل سفائن شحنت بالموسيقاريين تحيي العاشقين الملكيّين ، واصطف على جانبي النيل طوائف من الكهنة يرتلون أغنياتهم المقدسة . ولقد اضطر العاشقان أن يوافيا الهيا كل بزيارات يقومان فيها بأداء الفروض الدينية ؛ ويستمعان للمواعظ والخطب ؛ وأن يسـتقبلا وفوداً تحمل إليهما الهدايا الثمينة والتحف النادرة . وهنالك نحرت الكباش تضحية وقرباناً ، وجرى دم الحمائم قانياً .

وما انتهى الاستقبال الملكى حتى أبدت « كليوپطرا » رغبتها فى أن تترك « وقيصر » فى انفراد وهدوء ، بعيـدين عن

هموم الرسميات . وكانا يقضيان هاجرة النهار فى خلوتهما ؛ ومن حولهما نوافير تلطف من حرارة الهواء ؛ وتتدفق مياهها فى برك صغيرة نامت فى أحضانها زهرات النَّيْلُوفر ترنو بأعين ناعسة ، وتعكس ألواناً مختلفة ، من بياض ناصع ، إلى لازورد اشتدت زرقته ، إلى أرجوان قرمزى ، ينبعث من نوريّاتها الوادعة الهادئة . وبهذه المثابة نسى العاشقان كل هموم الحياة ، وما تتطلب الحياة من ميول ومطامع ورغبات .

ولئن نسيت الملكة كل شىء ، فإنها ما نسيت ساعة واحدة ، الغرض الذى من أجله اقتادت عاهل الرومان ، إلى أقصى حدود مصر ، وكانت قد عقدت العزم على أن تربط حاميها الأعظم بذكريات لا تمحوها الأيام ، ولا تَفْعَلُ بها السنون ، وأن تثبِّتَ فى روعه أن مصالح مصر ومصالحه شىء واحد .

وكانا ، إذا عسعس الليل ، وأرخت الظلّمَاء سدولها على الوجود ، يخرجان إلى الحدائق يجوبان ممرّاتها الجميلة الساكنة ، ويشمان عبق البنفسج ، أو يدرجان بين الخمائل الملتفة ، فيَسَّاقط على رأسيهما التِّبْرُ المصرى الذى حمله هواء النهار ، وكسى به الأشجار اليانعة . ولقد تجيب « كليوپطرا » على ما يوحى إليها به « قيصر » من بسمات الأمل ، ولكن فى فَرَقٍ أشبه بفرق الأطفال .

« نعم . نعم . إن بلادى أجمل بقاع الأرض . ولكن إخضاعها من جسام الأمور » .

وما ينى « قيصر » عندما يحس نعومة الذراع الذى يطوق عنقه ، عن أن يعد « كليوپطرا » وعدَ الصادق الأمين ، بأن بلاده لن تقصر ، بكل ما أوتيت من قوة وبطش ، فى حمايتها والذود عن حياضها .

على أن عزلة الملكة وقيصر ، وبعدهما عن الظهور للناس ، أمران لن يطولا إلى غير نهاية . فأرادا قبل أن ينهيا عزلة الحب ، أن يخلدا ذكرى هذه الأيام التى قضياها معاً فى سعادة ما شابها من شىء إلا خطرات كانت تمر بخيلة « قيصر » عن رومية وهموم قيصريتها المترامية الأطراف ؛ أو همس كان يساور « كليوپطرا » فيما يكون لو أن « قيصر » اضطر يوماً إلى الرحيل عن أرض السحرة الاقدمين ؟

وإنما يخلد ذكرى الحب عمل تتوارثه الأجيال . وأى شىء تتوارثه الأجيال غير هيكل تعبد فيه « إيزيس » المحبوبة ؟ وفى وسط خميلة من شجر الدّفَل والتين المصرى ، سكنتها أطيار أضفت الطبيعة على أرياشها ألوان قوس قزح ، وضع العاشقان الحجر الأساسى من هيكل الحب والجمال . ولقد انسلخ ألفان

من السـنين ، طوت الأرض خلالهما ثمانين جيلاً من أجيال البشر ، وكل من زار فردوس « فِيلَه » يقف وقفـة المأخوذ بسحر ذلك الرواء الذى خلعه الفن على تلك العمدان القورنثية ، الواقفة هنالك عنواناً على الوداعة ، ورمزاً للجمال . ولم ينقش على ذلك الهيكل من اسم يدل على الآلهة التى شيد ليكون وقفاً عليها . ولـكن ما وقف أمام ذلك الهيكل من إنسان ، إلا وأدرك بديئة ، لمن وضعت قواعده ؛ ورفعت أركانه .

* * *

فى الإسـكندرية ، هبط وفد من الرومان ، ينتظر عودة قيصر !

لمـا علم الرومانيون أن قائدهم ، فاتح الممالك ومدوخ الشعوب ومبيد الثورات ، وغازى أرض الفراعنة ، وأن بطلهم الذى لا ملجأ لهم غيره ، ولا محط لآمالهم سـواه ، قد عبثت به « سرسية » الجـديدة ؛ تملّـكهم الرّعب ، ومشى فى قلوبهم الخوف والوجل .

أَيُخَيَّلُ إلى قيصر أن فى مقدوره أن يتحدّى القـدر ؟ فإن ما أقام من مجد ، وما شـيد من عظمة ، وما بَنَتْ عبقريته من طارف المجد وتالد العِزّة ، قد ينهار ويتحطم ، إذا تولاّه الإهمال ،

وعملت فيه يد التهاون . ومن ذا الذى فى مستطاعه أن يحدس النتائج التى تترتب على لهو قيصر ، لو أن فلول حزب « پومپيوس » قد جمعوا كيدهم مرة أخرى ، إذا علموا أن قيصر يلهو ، وأنه قد أُخِذَ بفاتن ملكة ، فراح يهبها قلبه ، ويبثها نجواه ، ويبادلها الهوى والغرام . كلاّ . بل إنه سخر رومية لمطامعها ، وساق كتائبها ؛ فرساناً ومشاة ، ليغزو مصر ، ثم يلقى بها عند قدميها .

أمّا الذين هم كانوا أقوى جناناً ، وأصرح نفوساً ، وأثبت قلوباً ، فقد جاهروا بمخاوفهم ، ومضوا يترقبون الحوادث فى انتباه وحذر ، حتى لقد غشت على رومية غاشية من القلق ، وأخذها ما يشبه الدوار الكاذب الذى يأخذ أولئك الذين علكهم تيه الصحراء .

ومهما يكن من أمر المرأة ، ومهما يكن فى صدرها الحنون من عطف وملذات ، ومهما استروح فيها الرجل من عبق السعادة والنعيم ، فإن بطلاً من طراز قيصر ، لابد من أن يصيخ لكلمات صحبه ، وأن يهب من ذلك الفراش الوثير مذعوراً ، إذا ما أهابوا به « إن شرفك فى الميزان » !

ولم تكد هــذه الكلمات تخترق أذنيه ، حتى استيقظ « قيصر » من سباته ، وانتبه فيه البطل ، واستخفى الشاعر .

كيف لا وقد أدرك أن كل ما أتى من أعمال عظيمة خالدة ، وأن كل ما بنى وشيد ، وأقام ونجَّد ، إنما يذهب فى لحظة هباء ، ويطير مع الريح بدداً ، إذا هو لم يستجب لوحى الساعة . فإن من واجبه أن يغادر مصر تواً ، وأن يحل عن عنقه ذراعى النَّمِرَة التى كادت تستبعده . نعم . كان من واجبه أن يركب جناح القطا إلى روميـة — غير أن هنالك واجباً آخر . فإنه كان يحتاج إلى قليل من الزمن ، يمهد فيه السبيل للإفضاء بذلك النبأ العظيم إلى المرأة التى كانت ترى فيه العون الأوحد فى الحياة ، والملاذ الأخير فى الدنيا . وبكل ما يتطلب الموقف من لين وَدَعَةٍ ، وبكل ما يوجب ذلك الظرف من هدوء وعطف ، أفضى « قيصر » إليها بالنبأ الذى روَّعها ، وملأها خوفاً وإشفاقاً .

— « إذن فأنت تحاول أن تحل ذراعى من حول عنقك » ؟

وبجمَّاع ما فيها من حرارة وفتنة ، جَذبته نحوها ، وضمته إليهـا ، وتشبثت به تشبثاً أملاه الحب والخوف ، والحزن والاضطراب ، حتى لقد خشى « قيصر » العظيم أن يلوذ بالهزيمة ، إذا طال به موقف الوداع الأول ؛ وهو بعد ، ذلك الرجل الذى تحدّى العالم ، وخلفه يرجف من تحت قدميه . غير أنه لم يلبث غير بعيد ، حتى تذكر الحكمة التى اتخذها فى حياته مناراً :

— « الأوَّل دائماً ، وحيثما كنت » .

فاستعاد شجاعته ، واستعلى على وحى المرأة مرة أخرى .

فإن « قيصر » برغم ماعرف عنه من إباحية واستهتار ، لم يكن بعد ذلك الشهوانى الذى تخضعه غرائزه فى كل الحالات ، وتستعبده مَلَاذُّه وميوله فى كل الظروف . ذلك بأن مزاجه كان يتحرق إلى الحركة ، ويَحِنُّ إلى العمل ويميل إلى الصِّراع ، وبخاصة فى حالة كانت تدعوه حوادث السياسة فى وطنه إلى المبادرة للعمل والجهاد .

— « أَيُرْضِيكِ أن يصبح « قيصر » الذى نظر إلى الناس نظرة أنهم القطعان المسوسة ، أن ينزل بجبنه وتهاونه إلى مرتبة أولئك الذين يشملهم احتقاره » ؟

ولقد أخذ الحزَنُ بمجامع « كليوبطرا » لمَّا أن بدَا لهـا أن الزمن يكاد يستلبها « قيصر » . كيف تستطيع أن تبسط على « قيصر » سلطانها ، وتحوطه بيديها القويتين ، وهو عنها بعيد؟ من ذا الذى سوف يحميها ويدفع عنها عوادى الأحداث ومطامع الطامعين ؟ ومن ذا الذى سوف يمد لهـا يد العون لتخضع أهل مملكتها ، إذا هم كَشَّرُوا لهـا عن أنياب كأنها المسنونة الزُّرْق ، أو شرعوا فى وجهها راية العصيان بسواعد مفتولة ، وأظافر محدودة ؟

كانت « كليوپطرا » قد أوشكت أن تصير أُمًّا ، فاتخذت من ذلك الرباط الدموى الذى سوف يربطها بقيصر ذريعة استقوت بها عليه ، فوعدها ألاّ يغادر مصر قبل أن ينشق أَنْفَاسَ الحياة ، حَفِيدُ أنياس والزُّهرة ، وسليل بيت بطلميوس : ذلك الذى غادر تلال مقدونيا فى ركاب الاسكندر جنديا صغيراً ، وانتهى به الحظ أن يصير فرعوناً للمصريين ، وآلهاً للأغارقة .

أما « قيصر » فكان قد شغل ثانية عن رومية وأحزابها ، وعن القيصرية وهمومها ، بعقدم ذلك الذى ارتقب مقدمه ، ولم يَجُل فى صدر « قيصر » من هم فكان أشد به أَخْذاً ، أو أمعن وخزاً ، من أن الأقدار قد ذرته فَرْداً ، فلم يعقب من زوجاته الثلاث اللاتى تزوج منهن ورثياً . فلقد أصيب من قبل بموت ابنته « يُولْيَا » ؛ ومنذ أن طوتها الأرض ، لم تستجب له السّماء بما يعوض عليه من فقدها . ولِمَنْ سوف يُوصى قيصر بثروته الطائلة ، وضياعه الواسعة التى يملكها فى مقاطعة « امْبِرِيَا » ؟ ومن ذا الذى سوف يزود البشر بأعقاب سلالة « قيصر » القدسية ، على توالى الأعصر والأحقاب ؟ أيجود عليه الحظ بغلام يرثه ويرث من آل بطلميوس ؟ أمَّا الأمانى التى مَنَّى بها « كليوپطرا » ، إن هى وهبته ذلك الوريث ، فكانت ولا شك

أشبه بالأحلام . وحبذا لو تصدق الأحلام .

لقد كان لأخته « أطْيَا » ولد ، هو « أُكتافيوس » .

ولكنه كان يعلم حق العلم أن ابن أخته ضعيف التكوين ، بدنًا وعقلاً ، ناعمُ النشأة ، خَوَّار القلب ، غيرُ صَبَّار . وليس المستقبل لخوار العزيمة ، ولا للقلق المتردد . وإنما ينزل الناس على حكم القوى ، وعند رأى الأحيل . ومن ذا الذى يستطيع أن يَخْطِر أن « ابن السَّفَاح » سوف لا يكون أجدر من « أكتافيوس » بالميراث العظيم الذى سيخلفه قيصر « أمْبَرُور » رومية ! ولو أن أخيلة استمدها قيصر من نجم ضال فى عرض السماوات ، أو استخلصها من بطن كهف أجَنَّتْهُ أغوار الأرض ، لكانت أقرب إلى عقله وقلبه ، من أن يتخيل أن سيف « أكتافيوس » سوف يُحَكِّمُ فى خِنَاق « قيصرون » ، ابنِه من « كليوپطرا » ، بعد دورة قصيرة من الزمان ! !

فى مساء اليوم الذى عمد فيه قيصر إلى الرحيل ، مستجيباً لإلحاح صحبه ، بعد أن أمضهم طول الانتظار ، تمخضت كليوپطرا عن مولود .

كان غلام .

وشاءت الطبيعة أن يكون ذلك الغلام نسخة من أبيه ،

لا يختلف عنه فى شىء إلاّ فى صغر ملامح الطفولة ، مقيسة على ملامح الرجولة . ولقد هزّ الفرح قيصر تلك الهزّة التى تملك الكهول ، إذا جادت عليهم الأقدار بعقب ، بعد أن تكون قد نبذتهم ، وأطالت بهم النبذ ، فى بيداء العقم المجدبة . وسرعان ما اختار له الاسم فدعاه « قيصرون » . فإن ذلك من حقه وملك يمينه . أمّا أن يرسم له المستقبل ويُحدد تخومه ، ويخط فى عقله مصوَّراته ، فليس من حقه فى شىء . بل إن ذلك من حق الأقدار وحدها ؛ ولا شريك لها فيه .

لقد قطع على نفسه عهداً أن يعترف بأبوته للغلام ، عندما أقبل يودع كليوبطرا قبيل الرحيل ، فى موقف جاوزت فيه الملكة حد اللوم إلى التقريع والوخز ، توطئة للإفضاء بما تنطوى عليه حناياها :

— « اتخذنى زوجة . قيصر : اتخذنى زوجة ! »

ذلك بأن رأسها الصغير الجميل ، ومن فوقه تاج آبائها العظام ؛ كان قد أُفْعِمَ بالأمانى ، وفاض بالآمال الجسام . آمال أشعرتها بأن نفسها أعظم من أن تقنع بحكم أرض الفراعنة وحدها . لقد فقدت أرض الفراعنة ، بعد أن عاثت فيها الجنود الرومانية ، رونقها وعظمتها وكرامتها . إن أرض الفراعنة

لم تصبح أكثر من سوق تجارى ؛ لهذا سبحت أحلامها نحو رومية . وكيف السبيل إليها ؟ إنما سبيلها أن تقرن حظها فى الدنيا بحظ رجل الامبراطورية الرومانية ؛ ذاك الذى إن شاء وضع رومية من فوق السماك ، وإن شاء جَلَدَ بها الأرض .

***

لقد كَبُرَ هذا الأمر على « قيصر » أول شىء ؛ بل أوسعه همًّا وملأه إكباراً . ففى القصر الرسمى فى رومية « كلپُورْنِياَ » زوجه الشرعية ، ترتقب أوبته . ذلك فى حين أن كليوپطرا كانت زوجًا لأخيها ، بطاميوس الثالث عشر ، تلبية لتقاليد أسرتها القديمة . ولكن ... ...

أية قيمة لمثل هذه المخطورات فى نظر غَرَةٍ مثل كليوپطرا ، فى صدرها قلب ، وفى دِماغها عقل ، وفى نفسها شهوات ؟ ما قيمة هذه الاعتبارات فى نظر شابَّةٍ انحدرت من بيت ملكى عُرِف فى أميراته خاصة ، أن فيهن من افتراس النِّمرات ، أثراً غير قليل ؟

لقد وزنت كليوپطرا الدنيا فى يدها ، فرأت أنها لن تتسع لمطامعها ، وأنها تضيق عن أمانيها ومطالبها ، إذا هى قرنت ثروتها الطائلة التى تزودها بها مصر ، بعبقرية القائد الأوحد فى

العالم الرومانى. ولا شك فى أن ثروة كليوپطرا تؤيدها عبقرية قيصر ، كفيلة بأن تذلل الصعاب ، وتدك العقبات .

على أن ما كان فى إيحاء كليوپطرا من عظمة وجلال ، وما كان فى مراميها من طموح واستعلاء على كل ما فى الدنيا الحافَّة بها ، قد أفعم قلب قيصر ، فسكن إلى ذلك الوحى ، وجنح إليه . ذلك بأنه كان يعلم قدر ما فى سكونه إلى ذلك الوحى من لذاذة تغمر قلب فاتنته الملكية . وهنالك أخذ قَيْصَر من رومية همٌ عميق :

أتسمح رومية لقيصر إنه يركبها مطية إلى مطامع كليوپطرا ؟ أضف إلى ذلك أن قانوناً صارماً من قوانين « السُّنَاتُو » الرومانى ، كان يحرم على النبلاء تحريما قاطعا ، الزواج من الأجنبيات !

— « أجل . . . . . ألست فوق القانون ؟ »

ولقد سمع قيصر هذه الكلمات تخرج من فم الفاتنة الإغريقية ، كأنها رنات المثانى والأعواد ، تحركها يدٌ صناع ذات مِرانة ؛ غير أن رجلاً أُلِّهَ فى العالم الرومانى ، وأُنْزِلَ فيه منزلة الأرباب ، كان فى مستطاعه أن يقاوم بعض الشىء ، مثل هذا الإغراء .

ودنت ساعة الوداع الأخيرة . فهزم قيصر، وضمَّ كليوپطرا

إلى صدره ضَمَّةً ، إن لم تكن وعداً صريحا منه بتنفيذ ما أرادت ، فإنها قد جَعَلَتْهَا تشعر بعد ذهاب عشيقها ، بأن خِطْبَتَها قد عقدت على العالم أجمع ؛ ومن فوق قمته العليا ، رومية العظمى

غير أن كليوپطرا لم تكد تشعر بالوحدة ، حتى انتكست أفكارها ، وراحت تضرب فى مهامه الحياة ، مضطربة تختلج بالأوهام حيناً ، وبالحقائق حيناً ؛ راحت تتوهم « رومية » راكعة عند قدمى الاسكندرية ، وأن الاتباع والأمراء يقتربون من عرشها زحفاً على الركب والبطون ، ليلقوا عند قدميها بأسلحتهم خضوعًا ، أو بمفاتيح أمصارهم إظهاراً للولاء ؛ وأن ملايين من الخلائق البشرية أخذت تسجد أمامها ، وأنهم جميعا يرددون اسمها مقرونًا باسم قيصر ، هاتفين بعظمتها ، مولين بوجوههم نحو سدَّتها العليا ، ابتغاء مطلب يرجى ، أو معروف يسدى .

بمثل هذه الأحلام تحولت وحدة كليوپطرا من صحراء قفر مجدبة ، إلى جنات ظليلة من الأمانى الحسان ، وتغيرت الحياة فى نظرها ، حتى لقد وهمت أنَّ أحلامها أقرب إلى التحقيق ، من حاضرها المحزن فى وحدتها الأليمة .

* * *

ما لبث قيصر « النَّائم » أن تحرر من السحر الذى سُلِّط عليه

من عيني الملكة المصرية السوداوين الناعمتين ، حتى ارتد قيصر « اليقظ » الصافي البديهة ، السريع الخاطر ، القوي الحجة ، الثابت النفس . لقد تحرك فيه خُلُقُ « النَّسر » المتوثب ، القفّاز إلى الغايات ، الطّفّار إلى النّهايات .

على أن الحالات التي قامت في العالم الروماني ، قد اختلفت كل الاختلاف عما كانت عليه عند ما انتصر « قيصر » في برية « فرساليا » على جيش « پومپيوموس » فإن فلول ذلك الجيش ، وقد طال بها العهد على سماع اسم « قيصر » ، وهو في عزلته بين ذراعي كليوپطرا ، قد جمعت كيدها ، ونظمت صفوفها مرة أخرى . وما كان كيد أنصار «پومپيوس» بالأمر الهين . فإن قوامهم قد اكتنفته عن يمين وعن شمال ، وأخذ شبح الحرب الأهلية يكشر عن أنيابه الزُّرق المحدودة ، في ولايات الشرق الرُّومانية .

أيعود قيصر إلى رومية ، والعدو يكتنفه ، والحرب الأهلية تقرع بابه ؟ لم يعتد قيصر من قبل أن يجمع العالم الروماني رجلين : قيصر ؛ وعدوًّا ينابذه . لهذا يَمَّمَ شطر أسيا الصغرى ، قبل أن يهبط أرض إيطاليا ، وبدأ بتحطيم الأسطول الذي ختم به العدو مصب نهر « القُدْنُس » Cydnus ؛ ثم تحرك عجلان على رأس جيش انتقاه من جلاوزة الحروب ، القادرين على أن يأتوا في ساحة

الحرب بمعجزات ، وهاجَمَ « كَايَس كَشيوس » فى « إفِسُوس » و « فَرنَاقُس » فى « زيلاَ » ؛ ثم ارتد مسرعًا صَوبَ إفريقيـة ، وانتصر فى وقعة « ثِفْسُوس » . وبعد أن حصل على مبالغ عظيمة فى المال ، جمعها من الولاة الذين ملأهم منـه الرعب ، وأخذتهم منه سورة الوجل ، تلقاء بقاع من الأرض تضم بأمره إلى الولايات التى يحكمونها ، عاد إلى رومية مُثْقَلاً بالأسلاب ، محفوفًا بمظاهر العظمة ، ليتخذ من ذلك وسـيلة إلى القضاء على نفوذ كل من حاول من الرومان أن يذكر اسم قيصر ، بشىء يستشم منه ريح الامتعاض أو الارتياب .

ولقد أخذت رومية عدتها وأكملت زينتها لاستقبال «قيصر» ، استقبالا لم تشهده « الڤياسَكْرا » Via Sacra من قبـل[1] . فقد اجتاز قيصر شوارع المدينـة وعلى رأسه أكاليل النصر ، وفى ركابه عدد من الملوك أُسارَى مُقَرَّنين فى الأصفاد ، يمشون حفاة الأقدام حاسرى الرؤس ؛ وفى مقدمتهم « ڤِرْسِنْغِيتُور » ؛ الذى قاد الثورة على رومية فى بلاد الغال .

ومن حول مركبته ؛ وقد كتبت عليها العبارة المعروفة :

---

(١) أعظم شوارع رومية ؛ وكان يبدأ من تل « كاليا » إلى تل « إسكلين » مخترقاً قوس « طيطوس » مارا بالفورم الرومانى إلى الكابتول . (معجم سميث للاسماء القديمة . النسخة المختصرة . ص ١٣٦ . طبعة ١٨٦٧) .

«أتيت فرأيت فغزوت»[1] — Veni, vidi, vici ، التف شعب رومية يحيي بطله العظيم بحماسة الأطفال ، أخذهم الفرح بعودة أبيهم الشفيق المحبوب ، بعد طول الغيبة .

غير أن الارستوقراطيين لم يرقهم ما رأوا ، ولم تحفل قلوبهم بتلك الهزات المرحة التي حركت الجماهير . ولكن قيصر لم يأبه بهم ، ذلك بأنه مع الشعب وإلى الشعب ومن الشعب وبالشعب . كان ديمقراطيا خالص العقيدة في الديمقراطية ، بدأ حياته بطلب إصلاح حال الجماهير ، وترقية مستواهم الاجتماعي . بيد أنه كان يعلم ما في الجماهير من قدرة على التحول والانقلاب من حال إلى حال ، والانتقال من أحد طرفي النقيض إلى الطرف الآخر ، فلم يمعن في إغضاب الارستوقراطيين ، ولم يفرط في إظهار ميوله الشعبية ، إفراط الحمقى من الزعماء .

لقد علم ، وعلم بحق ، أن المنطق والعقل ، لن يكونا أشد خسرانا وضيعة ، منهما إذا هما انزلقا ليخاطبا الجماهير ؛ فأخذهم بأنواع المسرات ، وضروب اللهو ، فأمر بأن تقام الزينة ، وأن تمد الموائد ، وتقام معالم الأفراح في أنحاء رومية .

---

(١) رسالة أرسل بها قيصر إلى السناتو الروماني عقيب انتصار له ، فجرت مجرى الأمثال لايجازها وعظيم دلالتها .

كذلك قد علم مافى البر بشعب فقير من أثر يملك الأرواح والعقول والخواطر ؛ فأمر بالميرة والغلال والزيوت والخمور ، فوزعت على الفقراء بغير حساب .

وأقيمت فى الملاعب حفلات عظيمة ، حتى لقد غصت على رحابتها بالخلائق ، ينظرون فى تشوق إلى عراك المجالدين ، ويمتعون أنظارهم بمرأى الدماء المهرَاقة من الأجسام البشرية ومن الحيوانات ، ويرقبون كيف تفارق الأرواح الأبدان .

وظلت الزينة أربعين يوما متوالية ، فكنت لا تسمع من كلمة يذكر بها رومانى ، اللهم إلا اسم « قيصر » وحده ، منعوتاً بأنه « العظيم النابه » أو « القاهر » أو « الأب المحبوب لرومية العظمى » .

ولقد غمره الرومانيون بالألقاب ، وخصوه بأسمى التشاريف . فقد كان قنصلا ، ثم صار حاكما بأمره (دكتاتوراً) لعشر سنين ، وتلقى من الشعب لقب « الحامى الأعظم » لرومية وممتلكاتها . وخُصَّ فى « السناتو » بمكان أعلى من كل الأمكنة الأخر ، ونقش على تمثاله الذى أقيم فى معبد « يوپيتر » كلمة « إلٰه » بحروف بارزة .

***

ولكن الأمور فى الاسكندرية لم تجر على وتيرة يطمئن لها قلب كليوپطرا ، أو ترضى خيال قيصر . فإنه بالرغم من الجند الذى خلَّفه قيصر فيها بقيادة « كَلْـڤِينُوس » ليحافظ على النظام والأمن ، تمخضت الأيام عن عدة فورات ، أقضت مضجع الملكة ، وغشَّت على أحلامها بغشاوة من القلق والإشفاق .

قيل ، فى السر مرة ، وفى العلَنِ مرَّات ، إن الملكة مالأت الأجانب ، وألقت بنفسها فى أحضان الدُّخلاء ، وأنها رضيت أن تكون أَمَةً لرجل رومانى ، وإنها فوق هذا وذاك ، امتهنت شرف الدولة ، بأن أعلنت فى غير خفاء ، أنَّه والد ابنها .

أيجول فى خاطر كليوپطرا أن تؤمِّر على المصريين فى المستقبل ملكا ، ليس منهم فى شىء ؟

على أن مثل هذه التهم ، لم تكن لتهمَّ إنسانًا فيه من الجُرأة والإقدام قدراً يحفزه على أن يهملها أو يضرب بها عرض الأفق الأوسع . غير أن كليوپطرا فى ذلك الوقت ، وهى فى حدود العشرين من عمرها ، لم تكن قد أصبحت بعد تلك الملكة الصلبة المقدامة الشديدة المراس ، التى تقود الجحافل الجرارة إلى ساحة الحرب ، وتكتم أنفاس الرأى العام ، بنظرة غضب ، أو لفتة احتقار .

نعم . كانت فى حدود العشرين من عمرها الحافل بالأحداث ، شديدة الحساسية ، رقيقة العاطفة ، وكان شبح الثورة يخيفها ، بل يذهب بالنوم عن جفونها ؛ فمضت مهزوزة القلب ، ثائرة الأعصاب ، تتوقع بين آن وآخر أن يكون ، ما ليس فى منطق الحوادث من دليل ، على أنه سوف يكون .

أما حاميها ورَادُّها إلى العرش ، فلم يكن بعد إلى جنبها ، يدفع عنها شر النفوس ، وفتنة الأطماع . أَفِى مكنتها أن تتغلَّبَ دوماً على تلك النظرات الجافية التى يرميها بها ذوو الفتنة ، والنذُر التى كانت تقرع سمعها ، والفورات التى لا يطفئها إلا الدماء ؟

لقد كان لها حتى الآن من نفوذ قيصر ، بالرغم عن غيبته ، عضداً ادَّرعت به ، واحتمت من خلفه ، ولكن إلى أى حد تتطور الحوادث ، إذا ما ثبت فى روع الثُّوَّار أنّ قيصر قد هجرها ، وأن ليس فى يدها من قوة غير عدتها الذاتية ؟ من ذا الذى يحول بين هؤلاء وبين خيال يجول فى أدمغتهم ، أومطمع يدور فى صدورهم ؟

عامَّة ذا لم يكن شيئاً مذكوراً ، إلى جانب ما شاع عن قيصر من أحاديث . فقد قيل إنه فُتِنَ ، فى أثناء مغزاته الإفريقية ،

بالملكة « أُونُونْيَا » ! أذلك ممكن ؟ أيقع هذا بعد فترة وجيزة من إفلاته من بين ذراعيها ، حيث أقسم على أن يظل لها الحياة وفياً ، وأن يمضى لها أميناً ؟

ما أضعف المرأة ، على قوتها ، إذا ما أصبح رجلها الذى تحبه بعيداً عن أن تحوطه بتلك الحلقة الحديدية ! التى هى ذراعاها !

على أن ما بين ذراعيها وقيصر ، من فجاج الأرض ، ليس مما يتعذر اجتيازه ؛ وما الذى يحول دون ذهابها إليه ، إذا كان قيصر مايزال لها وفياً محباً ، وإذا كان ما ينفك يحس فراغاً عظيما فى جو حياته ، بقدر ما بينها وبينه من نزوح الدار وبُعْدِ المزار ؛ على ما كان بينها فى كتبه من نجوى ؟

أمّا رغبتها فى أن تحكم الصلة التى تربطها بقيصر ، وأن تزيد أواصرها قوة ، فقد كان يشوبها شعور بالخوف من رومية ! نعم من رومية : عدوتها التقليدية . تلك المدينة الفتية ، التى لولاها لتربعت الاسكندرية على هام الأمم ، ولأصبحت سيدة الأرض كلها ، بل لأضحت الدرة الصماء فى تاج الدنيا . نعم رومية ، عدوتها التقليدية ؛ تلك التى لن تغمض عنها عين كليوپطرا ، أو تفغر فاها الواسع العميق ، لتبتلع الوادى الأقدس ، وتضمه إلى ما ابتلعت من رحاب الشرق الفسيح . ولكنها برغم هذا كله ،

كتبت إلى قيصر تستوحيه رأيه فى زيارة رومية .

***

بعد أن غاب عنها قيصر حولاً كاملاً ، تلقت منه رسائل يجدد لها فيها عهد الحب والوفاء . أمَّا إذا كان قد فتن بعض الشيء «بأُنُونْيَا» ملكة «نُومِيدْيا» ؛ فإنما هى فتنة عابرة ، كسحابة الصيف ، أو هو اتخذها أُلْهُوَّة يروِّح بها عن نفسه ، بعض ما كان يشعر به من حَزٍّ الذكريات القديمة .

أيجوز لرجل مثل « قيصر » ، أثقلته المسؤوليات ، وأنقضت ظهره الواجبات ، أن يدلف مع الحب إلى تلك الأغوار التى تصرفه عن أمور رومية ، وفى يدها الدنيا بأسرها ؟

سواء أجاز هذا أم لم يجز ، فالواقع أنّ « قيصر » كان دائم التفكير فى ليالى قصر « البُرُوخْيُوم » مأخوذاً بدوافع لم يكن له فى صدهن عن خياله من حول ولا طول . كان يحلم بالاسكندرية ، وبالساعات التى قضاها فى حضن النيل الهادئ ، وقد همدت ثورات نفسه ، ونعست أعصابه المضطربة ، فأغفت عيناه الوقادتان ، وفيهما مرأى النهر الأقدس ، يوحى إليه بالأحلام الشهية .

***

لقد تردد قيصر شيئاً قليلاً ، قبل أن يبيح للملكة زيارة رومية . أما أن تزور ملكة مصر ، عاصمة العالم الرومانى ، فذلك أمر جسيم ، ليس لقيصر أن يقضى فيه بحكم ظَهْرَ الغيب ، ومن غير أناة ، وطول تفكير . ولقد رأى بثاقب بصيرته أن السبيل ينبغى أن تمهد ، قبل أن تطأ قدما كليوپطرا عاصمة الدنيا . أمّا أكبر العقبات التى كانت تقوم فى وجه قيصر ، فعلمه بكراهية الرومان الرسيسة ، لكل من يحمل من فوق رأسه تاجاً . وربما لا نخطئ إذا تصورنا أن أهل رومية ، كانوا يرون فى هبوط أصحاب التيجان أرضها عامل هَدّام يضرب فى أصول الحريات الرومانية ، اللّهم إلاّ أن يهبطوها أُسارى مقرنين فى الأصفاد . أضف إلى ذلك أن كليوپطرا كانت تُرْمَقُ فى رومية بأعين تفيض بالارتياب والحقد والغضب .

كان الرومان يعرفون فيها الطمع الأشعبي ، غير ناسين ما بسطت على قيصر من سلطان ، وما سلطت عليه من سحر . وما كان « قيصر » لينسى أن أهل رومية كانوا قد جنحوا إلى الارتياب فى أمره ، والتشكك فى نياته . أمّا وقد استطاع أن يحول ريبهم إلى ثقة بعد انتصاراته فى آسيا وإفريقية ، وإخماده الثورات التى هدّدت أمّ الدنيا ، فإن هذه الريبة لا بد من أن تُوَجَّه

إلى كليوپطرا ، مُجَدِّدَةً بالذكريات التى ثبتت فى عقليتهم من التجاريب الأولى .

إنَّ المرأة التى استطاعت أن تحبس قيصر عن العودة إلى وطنه طوال تلك الفترة ، وصرفته عن التفكير فى أولئك الذين لهم فيه الحق الأول ، لابد من أن تكون الطبيعة قد هيَّأتها بقوى تمكنها من مَحْو العرف الإنسانى ، لتستن للإنسانية عرفاً يرضيها .

وبعد . أمن الحكمة أن يحمل « قيصر » فاتنته الملكية إلى مثل هذا الجو ، وأن ينزلها مثل هذا المنزل ، وأن يقذف بها فى مثل هذا الأتون المستعر من الفكرات والخيالات والأوهام ؟

لقد سأل قيصر نفسه :

« أيقوى على أن يضع كليوپطرا موضعاً تقابل فيه بهتاف العداء ؟ »

« أيستطيع أن يغمض عينه عن أعدائه الذين سوف يستغلون الموقف قائلين : لو لم تأت كليوپطرا لذهب قيصر إليها ، نابذاً رومية ومن فيها ؟ »

ومضت الأيام تترى ، وقيصر فى بلباله ، وكليوپطرا فى أَلَمِها ووحدتها مهتاجة قلقة ، تمر بها الساعات طويلة ممضة حزينة .

***

إلاَم تنتظر كليوبطرا ؟ وعلام يتوقف رحيلها ؟ أعَلَى إرادة قيصر ؟ كلاَّ ! فإن لهـا لإرادة أين منها إرادة العاهل الأعظم ، وإن لها لذكاء أين منه عبقرية زعيم الدنيا ! لهذا صممت كليوبطرا على أن تهبط رومية بمحض إرادتها مدَّعية أن نصوص عهـدها السياسى مع رومية ، فى حاجة إلى أن تُحَدَّدَ ، وأن تفسر تفسيراً فاصلاً . لهذا تتنازل كليوبطرا بزيارة رومية لتناقش فى نصوص العهد التى ما تزال موضع خلاف ، يخشى معه ، أن تـكْدُرَ العلاقات بين مصر والجمهورية الرومانية !

أمن أجل أن تنال مصر لقب « حليفـة الجمهورية » Socius Republicœ تشق كليوبطرا عباب بحر الروم ؟ لم يكن هنالك من حاجة لأن تذهب الملـكة بنفسها إلى رومية لتنال حظوة الحلف معها ! وإلاَّ ففيم كان السفراء ؟ غيرأن «السناتو» الرومانى ، وقد أخذه الزهو بأن تمثل أمامه ملـكة مصر ، صدَّر إليها دعوة رسمية ، يدعوها إلى زيارة رومية .

هاهى ذى كليوبطرا قد طوت « السِّنَاتُو » الرومانى فى صدرها ، كما طوت من قبل عاهلهم الأكبر . أمَّا وقد دعتهـا رومية ، ففيم الانتظار ؟

* * *

كانت شمس يونية مشرقة وضاءة ؛ وقد دبت الحياة فى أرجاء « الفُورُوم[1] » Forum بمدينة روميـة ، وغصّت شرفات منازلها بالناس ، وازدحمت الشوارع والأسواق بشتى الخلائق البشرية ، على اختلاف أجناسهم وألوانهم . كان يُخيَّلُ للرائى أن رومية إنمـا لبست هذه الحُلَّة الزاهية إحياءً لعيـد ، أو تخليداً لذكرى من ذكريات المدينة الخالدة ؛ على أن خليقة الجمهور الرومانى ، فى ذلك اليوم ، لم تـكن خليقة العطف والحب ، بل خليقة المناوأة والتّحدِّى .

ولقد راجت فى تلك الآونة أقوال ، وشاعت أقاصيص ، عن تلك الزائرة التى فزعت رومية ولدانًا وشيباً ، فتيات وفتيانا ، لاختطاف نظرة منها . قيـل بأنها غانية ، ترفل فى الدمقس ، وتخبُّ فى الديباج ، وتغرق فى الأحجار الـكريمة والذهب الخالص . وقيل إنها ساحرة ، لن يفلت من شرها إنسان اتصل بها ، أو كان له بها علاقة مّا .

أما الخواصُّ ، فـكانوا على إن كليوبطرا ليست إلا ملـكة من ملـكات الشرق . غير أنها الملـكة التى لم يَكِنَّ الشعب الرومانى فى صدره من حقد لإنسان ، بقدر ما أ كَنَّ لهـا .

---

(١) الساحة الرئيسة فى مدينة رومية ، وكانت تتخذ موضعاً لاقامة العـدل بين الناس أو عقد المجتمعات العامة .

وتقدم ركبها عدد من العبيد السود يلبسون أقراطا من ذهب، وبينهم الخصيان؛ فكانوا يشتملون بأردية طويلة، كتلك التي يلبسها النساء. أما الوزراء وصدور الدولة، فقد لبسوا على رؤوسهم شعوراً مستعارة؛ ذلك في حين أن الجند كانوا نصف عراة، وعلى رؤوسهم ما يشبه المَلَامس[1] Antennæ . فَلَاحُوا كأنهم حشرات كبيرة الأجسام.

ولما أن بدأ ذلك الموكب يشق قلب رومية، قوبل بعاصفة من الضحك والسخرية. أما الاستهزاء فكان من نصيب العلماء الفلكيين، بقبعاتهم الطويلة، ذوات القمم المدببة، والكهنة بجلود النمور التي ارتدوها. وبلغ الاستخفاف بأهل رومية مبلغه الأخير، لما أن وقعت أنظارهم على تلك الأعلام الكبيرة، وقد رسم عليها صور مقدسة! فما تلك الثعالب؟ وما هذه الصقور؟ وعلى أي شيء تدل تلك البقرات السِّمان؟ أهذه مُثُلٌ من آلهة؟ لا جرم أن الذوق الرُّوماني كان يأنف من النظر إلى مثل هذه الرموز، تُتَّخَذُ لآلهة وآلهات.

غير أن أهل رومية لا يلبثون على هذا غير قليل، حتى يلوح

---

(١) للحشرات أعضاء في مقدم الرأس تستعملها للمس وتسمى Antennæ فسميتها الملامس هنا تخفيفاً، ويدعوها البعض قرون الاستشعار، ولا أوافق على هذا الاستعمال.

لهم الهودج الملكى ، غارقاً فى بحر لجى من الحراب المشرعة ، والسيوف الباترة ، فيسود الصمت العميق ، كأن قبراً أَجَنَّ أهل رومية أجمعين ، عندما تقع أنظارهم على كليوپطرا ، ومن فوق ذراعيها ولدها « قَيْصَرُون » .

كم ذا سَبَّبَ لها « قيصرون » هذا من قلق ، وكم ذا بعث فى نفسها من مضضٍ ، فى قصر الاسكندرية ؟ هَمُّها بمستقبله ، وهَمُّها بأبيه !

أمّا فى رومية فقد ارتقبت كليوپطرا من ابتسامته الساذجة ، ومن قربه فى الشبه بقيصر ، أن يكون مبعث عاطفة تنطلق فى صدور الرومان بما يدنيها خطوة من غرضها الخطير . ولم يخب فى ذلك نظر كليوپطرا ، فإن قيصر فى ذلك الوقت كان معبود رومية ، وما عمل من عمل ، أو أتى من شىء ، إلاّ انتحل له الشعب الرومانى منطقاً يؤيده . أمّا إذا كانت بعض الصدور تغلى بالحقد وتنفث بالغضب ، أو كانت بعض الرؤوس تحتشد بشتّى النقود ، فإنها لم تقو على أن تجهر بشىء ، أو أن توجّه إلى الملكة الشرقية بكلمة ، يشعر معها قيصر ، أن فيها امتهاناً لعزّته ، أو افتياتاً على جبروته .

ومهما يكن من أمر تلك المسحة السحرية التى مَسَحَتْ بها

الطبيعة ملامح كليوپطرا ؛ فإنها لم ترتقب أن ترضى بجمالها شعبًا تَضَخَّمَتْ فى رأسه فكرة السيادة على الدنيا ، فنظر إلى بقية الشعوب نظرة أنها خَوَلٌ له وإِمَاء . غير أن كليوپطرا لم تلبث أن أذكت فى الرومان روح الغَيْرَة ! بشعرها الذهبى المُمَوَّج ؛ وعينيها الدعجاوين المكحولتين فطرةً بما يعجز الفن عن محاكاته ، وأهدابها الطويلة المعكوسة على جُفونها ، وشفتيها العنابيتين ، وقميصها الشّفاف الزَّاهى ، وقد برز نهداها من خلاله ، كأنهما حقّا عاج ، فى صفحة من المرمر الصافى . أما تجاعيد شعرها العجيبة ، فقد أطلّ من ثنياتها الصِّلُّ المصرى ، يأخذ بعينين متقدتين ، رومية والرومان .

ولكن قيصر كان قد فرض على أهل رومية أن يُحَيُّوا الزائرة الملكية ، فما وسعهم إلاّ أن يحيُّوا قيصرون ، زاعمين أن إهابه الأشقر الجميل ، وحركاته الخاطفة السريعة ، النَّامَّة عن الذكاء والتوقد ، إنما هى الدليل الكافى على انحداره من سلالة تمت إلى الآلهة بأسباب .

***

من أجل أن لا يداخل أحداً من الرومان شكٌّ فى ما ينبغى أن تُخَصَّ به كليوپطرا وولدها من الاحترام والكرامة ، أنزلها

قيصر فى صرحه العظيم الذى أقامه على شاطئ نهر التَّيْبَرْ — Tiber — الأيسر ، مشرفاً على الحدائق الغناء الممتدة على سفح أليانِكُولوم — Janiculum — ؛ تلك الحدائق التى أوصى أن تكون ملكاً للشعب من بعده ، وإنها لَهِبَةٌ ذكرها السواد الرومانى غداة مقتله ، فراح يسجد ذارفاً الدمع أمام شَمْلَته — Toga — الملطَّخَة بدمائه الزكية .

ولما أن رأت كليوپطرا أنها استقرت ضيفاً كريماً على الأمة الرومانية ، شملها شعور الرضى ، وأفعمها إحساس الفرح ، الذى يأخذ أولئك الذين غامروا وجاهدوا فى سبيل غاية ، فأفلحوا ونجحوا . فإنها على الرغم من كل العقبات التى قامت فى سبيلها ، خطت خطوة موفقة نحو غرضها الخفى الخطير .

غير أن مرماها الأسمى الذى تحاول أن تكلل ببلوغه انتصارها الأخير ، كان ما يزال طىَّ الغيب ، وكان عليها أن تجاهد فى سبيله . فإن من الضرورى لها ، لكى تنجح ، أن تربط قيصر بالزواج ؛ ذلك الرباط الذى يعقد من فوق رأسها تاجين : تاج الفراعنة ، وتاج الرومان .

وإن بنتاً من بنات حَوَّاء ، لها مواهب كليوپطرا السامية ، وفيها عبقريتها الأخَّاذة فى استخدام مواهبها النسوية ذريعة إلى

تحقيق أحلامها ، لن تتصور موقفاً أكثر مواءمة من موقفها في قلب رومية ، وبين ذراعيها قيصر ، وفي حضنها قيصرون ، ولده الأوحد .

بيد أن رومية ، عندما هبطتها كليوبطرا ، لم تَعُد بعد ذلك المعقل الحصين الذى تحتمى فيه التقاليد ، وتقدَّس فيه الشرائع القديمة . فإن تلك التقاليد التى قامت عليها عظمة الجمهورية الرومانية ، ومنها استمد الرومان تلك القوى التى هزت الدنيا بأسرها ، كانت قد أخذت فى الزوال والفناء . فإن الدِّين القديم كان فى طور انحلال ، وبالرغم من أن الدين كان معترفاً به فى الدولة ، فإن الملاحدة كانوا كثيرين ؛ وبخاصة بين الأرستقراطيين . وكذلك الشعب ؛ فإنه إن أظهر بعض الخوف من آلهته ، وأبدى لهم بعض الاحترام ، فإن هذا لم يصدَّ رومانيي ذلك العصر عن أن يفسقوا عن شرائع آلهتهم ، ومن تحطيم هيا كلهم أو تدنيسها ، إذا ما ملكتهم سورة غضب ، أو هبُّوا ثائرين . وكفى بقصة ذلك الجندى المستهتر دليلاً . فإنه مضى يفاخر بأنه سرق تمثال الآلهة « ديانا » — Diana — وأنه اجتنى بسرقته ثروة ، من غير أن يرى فى ذلك استخفافاً بآلهة ولا دين ، ومن غير أن يرى الشعب الرومانى فى ذلك تدنيساً لحرماته .

أما تقديس الزوجية ، فقد أصبح تقليداً من تقاليد الماضى العتيقة . فكنت ترى كل يوم وتسمع فى كل آونة ، أن عضواً من «السناتو» ، أو «قنصلاً» ، أو موظفاً كبيراً ، أو شيخاً مبجلاً ، أو سيداً محترمًا ، قد سَرَّحَ زوجه بالطلاق الأبدى لأتفه سبب ، أو بدعوى لا دليل عليها . ولقد امتدت الاستهانة بهذه التقاليد حتى أن «فِيقِرُون» الخطيب المشهور ، بالرغم مما عرف عنه من رضى الأخلاق وسماحة النفس ، طلق زوجه «تِرِنْتِيَا» ، بعد أن عاشرها ثلاثين سنة ، وشيعها بكلماتٍ قاسية قائلاً : «اذهبى من هنا ، واحملى معك كل ما هو ملك لك» . ذلك بأنه رَغِبَ فى أن تحل محلها فتاة أصغر منها سنًا ، وأكثر جمالاً .

لقد أصبحت الاستهانة بالأخلاق والعرف والشرائع ، تلك الأصول التى سيطرت على النظام الرومانى من قبل ، طابع عصر قيصر فى رومية ، بل أضحت السرطان المزمن الذى تشعبت عقده وجـذوره فى صميم المجتمع الرومانى . ولقد ذاعت الفضائح الجسيمة والمنكرات الضخام . ذلك بأن الثروة التى حصلت عليها رومية ، إثر المَغَازِى الكبيرة والحروب الموفقة التى قاد قيصر جحافلها ، كانت قد أبعدت الرومان عن فكرة الحياة البسيطة التى عكف عليها آباؤهم من قبل ، وأبطرتهم النعمة ، فراحوا

ينغمسون فى الترف ، وينتهبون الملذات . وعلى الجملة أصبح الذهب معبود رومية الأوحد ، وإلٰهها القاهر القادر على كل شىء ، سبحانه وله الحمد .

كان الذهب فى رومية ، قبل ذلك العهد ، من الأشــياء النادرة ، فلا تراه إلاَّ فى المعابد تُزَيَّنُ به بعض أجزائها . أمَّا فى عصر قيصر ، فقد دخل المقاصير الخاصة ، والأبهاء العامة ، وزيِّنَ به الفراش والأثاث ، ونقشت به الأسقف والجدران ؛ وإن شئت فقل إن كل شىء فى بيوت أهل رومية ، من الطبقات العليا ، كان يرهقه الذهب ، ويحليه التبر الخالص .

ولقد أراد «كاتو» — Cato — وهو من أعظم رجالهم ، أن يحتج على ما انغمس فيــه قومه من ترف ، وما تطوح فيه المترفون من مَفاسد ، فمشى فى أسواق رومية عارى القدمين ، وعليه شَمْلَةٌ ممزقة . ولــكن من ذا الذى يتّبع «كاتو» فى عالمٍ الذهب معبوده ، والفسق شريعته ؟ ولقد استهزئ به ، واستضحك منه ، وهو يمشى على تلك الهيئة الغريبة ، إلى جانب العجلات المموهة بالذهب ، تجرها خيل مطهمة جياد ، من أَجَلِّ ما أنتج الشرق من سلالات : أصيلة ومولَّدة .

أما النساء فكنَّ قد نسين شرائع رومية القديمة . فَرُحْنَ

يسرفن على ملبسهن إسراف الحمق والتبذير . فمن حول أذرعهن ، ومن فوق جَدَائِلِ شعورهن ، وفى أرجلهن ومناطقهن ، حلى ذهبية من صنع أمهر أهل الفن ، تغطيهن من مَفْرَق الرأس إلى أخمص القدم . وفى أعناقهن تدلت صنوف الجوهر ، ومنها اللآلئ الثمينة النادرة ، التى تنافس أغنياء الرومان فى الحصول عليها من بلاد الهند خاصة ، فحملتها قوافل التجار من تلك الأنحاء القصية البعيدة تلقاء بدرات من المال ، لا يتصورها عقل ، ولا يدركها خيال .

وكانت الولائم التى تعد على موائد الأثرياء من النبلاء ، تحاكى تلك التى أقامها « لُوكُلُّوس » . فالصحاف من الفضة الخالصة ، والكؤوس من الذهب المنقوش ، وفراش الموائد من الديباج الأرجوانى الثمين ؛ وعلى الجملة فقد حاكت ولائمهم ، ولائم ملوك الشرق ، جمالاً وعظمة . أمّا تقديس الفضائل المدنية السامية ، فضائل القصد والاعتدال وثبات الخلق والصبر والاحتمال ، تلك التى أثرت عن رومية فى نشأتها الأولى ، فلم تصبح أكثر من أساطير تروى عن الماضى ، وأحاديث ضاع زمانها ، وانطوى أوانها .

مع هذا لا ينبغى أن يغيب عنا أن نظام الجماعة القديم فى

رومية ، إن كان قد أخذ يخلى الطريق لعصر جديد ، تقصه الكثير من مجد الأسلاف الأقدمين ، فلا شبهة ، فى أن مسرات الحياة ومباهجها قد كُسِيَت روحًا مادية ، غمرت الناس بحالات لم يألفوها من قبل . فإن ثقافة العقل ، وحب الفنون ، لم يبلغا فى عصر من عصور رومية السالفةَ ، مبلغها فى عهد « قيصر » . ناهيك بالفلسفة والحفر وتعلم اللغات ، وبخاصة الإغريقية ، تلك التى كان يفخر نابهو رومية بإتقانها قراءة وكتابة . كل أولئك ، أشياء قد تجدد ميلادها فى رومية قيصر .

لم تكن لتشهد ناشئًا من النبلاء لا يفخر بأنه أتمّ ثقافته فى « رُوْدِس » أو « أفلُونيا » ، أو بخاصة فى أثينا . ولقد كان للنظريات والمبادئ التى يتلقونها خطر الذيوع والتقبل فى دوائر الأدب ، وحلقات العلم . وذاع الأدب وتعددت ألوانه ، وكثرت ضروبه وصوره ، حتى لقد عَمَّ التأدب طبقات من الشعب كثيرة ؛ وكان الأدب من قبل ، وقفاً على فئة قليلة ، دعاها الرومانيون « أهل الأدب » . وقد نقول على الجملة : إن الأدب والعلم ، أصبحا طابع ذلك العصر المجيد .

ولا تنس ، إلى جانب هذا ، أن حماية الأدب والفلسفة والفن ، وشمولها بالرعاية ، كان من حسنات ذلك العصر الفذ فى

تاريخ العصور . ففى قصر كل نبيل فيلسوف ، أو عالم بحّاثة ، يتشرف ذلك النبيل بأنه تحت سقفه ، وفى حمايته . يدلُّك على هذا أن أهل رومية كانوا يرون أنه من أكبر الشرف أن ينزل « فِرْجِيل » ضيفاً على أحدهم ، وكان قد هبط رومية قادماً من « سَنْتُو » ، لينشد فى السهرات مقطوعاته الريفية ، أو يسمعون تلك المقطوعات ينشدها « هوراس » ، وكان ما يزال شاباً فى العشرين ، موقعة على الأوتار ؛ ولقد تبددت تلك الأنغام مع الأثير ، ولكن ذكراها قد بقيت ، لتنحدر إلينا مع العصور ، فتكون فى عصرنا هذا من أخص الذكريات . وجملة القول ، أن رومية ما رأت من شىء فى عصر قيصر ، فقدسته وشرفته ، واستعلت به على كل الأرضيات ، بقدر ما قدست العلم ، وشرفت الفلسفة ، وأعلت الأدب .

***

أما « كليوپطرا » ، فقد أدركت بديئة ، مقدار ما تستطيع ، بمواهبها ومفاتنها ، أن تغمر به جمعية متمدينة ، تتطلع إلى المتعة بكل جديد مبتكر ، أو قديم خَلاَّب ، ولا يبعد أن تكون كليوپطرا وحدها ، دون كل نساء الحلقة التى احتكت بها ، قد استطاعت أن تسحر علماء رومية وأدباءها ، فأمَّ قصرها

فلاسفة من الأغارقة ، وأدباء من الرومان ، لم تقو فيهم الفطرة على أن تقاوم وحى الملكة ، وكأنما جاذبية الأرض قد تركزت حيث كانت ، وكأنما فتنة الدنيا قد تجمعت حيث نزلت ، فكانت القطب المغنطيسى ، فى عالم اتجه إليها ، وأحاط بها .

لقد خصت كليوپطرا بتلك الموهبة العليا السامية ، موهبة الإدراك ، ولقد حَلَّ فى جسمانها روح تضاءلت أمامه عظيمات رومية وخليعاتها على السَّواء ، وكن لا يعكفن على غير اللغو وكلام أهل الفراغ ، أو يعرفن من شىء ، إلاّ لذائذ الجسم ، دون لذائذ النفس والروح ، وهنالك عرفت كليوپطرا أن النجاح حليفها ، وأن غرضها يخطو إليها ، بعد أن كانت تخطو إليه .

فى البهو الأعظم الذى التفت من حوله أجنحة القصر الذى أنزلها فيه قيصر ، وقد أشرفت كليوپطرا على تنسيقه بما عرف فيها من سمو الذوق ورجاحة الفن ، كانت الملكة واسطة العقد فى حلقة جمعت رجالات رومية من أصدقاء قيصر ، يقضون هنيهات فى ظلها ، بل فى ظل الحكمة والعلم والأدب والفتنة ، لينسوا بقربها فى العشية ، بؤس ما لَقَوْا من مهام رومية فى النهار .

ولكن قيصر كان يقضى تلك الليالى قلقاً حائر النفس . لا لأن رومية قد هددتها الأعداء ، ولا لأن الثورات تقرع بابَها .

وإنما انتظاراً للساعة التى يضمها فيها إلى صدره ، ناشقاً عبق ذلك الجسم الربّانى ، ويحس ضربات قلبها تدق وقلبه ، دقات ما تتفاوت ثوانيها .

هنالك فى تلك الحلقة الفريدة ، كنت تَأْنَسُ تِرِيبُونْيُوْس ، ولِيفِيدُوس ، وسُلْپِيشْيُوس رُوفس ، وقُورْيُون ، وغيرهم من رجال الملأ الرومانى ، الممتازين بالعبقرية ، المعروفين بالتفرد فى سلامة الذوق ، ورفاهة الحس ، ودقة الملاحظة ، وسمو الفكرة ، والإحاطة الشاملة بآداب العالم القديم ؛ فإذا تحدثوا فإنما يتحدثون عن مشاكل الساعة ، وأزمات القيصرية ؛ تحدثوا فى الوسائل التى تمكنهم من إنجاز وعودهم للجند ، وإلغاء الديون ، وإنقاص الإيجار عن الأرض المزروعة ؛ إلى غير ذلك من معضلات عالم أصغر ، حكم وتحكم فى عالم أكبر .

فى كل ما تناوله الحديث من أحزان رومية ومسراتها ، تفردت الملكة الصغيرة بالرأى الفرد ، والحكم القاطع ، والمقال الفصل ، والحكمة البالغة ، والموعظة الحسنة .

ما كان لرجل من هؤلاء الأفذاذ أن يتصور أن هذه المرأة التى ما حضرت مجلسهم إلا لتضفى عليه من جمالها ، وتسبغ عليه من دلالها ، وتصبغه بصبغة الطراوة التى يأنس فيها المكدودون

المُجْهَدُون راحة تشمل العقل وتغمر القلب ، ستكون فى حلقتهم الفيصــــل الذى يدلى بالرأى ؛ فلا يخطئ مقاتل المصاعب والمشـكلات .

وأيّةٌ من مظاهر الطبيعة تـكون بألباب هؤلاء الجلاوزة أشد أخذاً ، من أن يشهدوا نِقَاش الفاتنة المصرية مع المؤرخ العظيم « سالُوسْت » ، وكانت قد درست كتبه وأحاطت بمذهبه فى علم النفس ، فأخذت تعصر المؤرخ الفيلسوف عَصْراً ، وتشدد عليه الخناق تشديداً ؟

لقـد كانت تَقُودُها على ما كتب « سالُوسْت » مربكة فائضة بالأسئلة المسكتة ؛ تلك التى لن تجد من جواب لها ، أبلغ من السكوت عليها .

وكان من مفاخر الخطيب المفوّه « أَسِيْنِيُوس فُولِّيون » أن يلقى إليها بأصول خطبه ، لينال حَظوة نقدها ؛ ثم بأشعاره التهكمية التى كان يصوغها على لسان راعٍ ، مُنْحِياً بها على الأوهام التى شاعت بين أهل رومية فى زمانه .

وما كلها من رجل ، أديب أو شاعر ، حكيم أو مشرع ، فيلسوف أو كاتبٍ ، إلاَّ وآنس فى براهينها قوة العقل المتدفق الفَيَّاض ، والعظمة القائمة على العبقرية ، تهبها الطبيعة بغير حساب ،

لمن تشاء من أبناء الفناء ؛ من أبناء الطين والتراب .

كان فى رومية عالم من علماء الآثار اسمه « أتيكوس » ، استرعت أعماله ومكتشفاته انتباه كليوپطرا . فكانت تقبل عليه إقبال المحب للعلم الهائم بالمعرفة ، وتقضى ساعات طوال تفحص عن جمال الفن فى قطعة من النسيج الفارسى ، أو تحفة من العاج صقلها عامل صينى صبور ، أو نقش بارز نقل إلى رومية من معبد « إفسُوس » . عامة ذا ، إن دل على شىء ، فإنما يدل على متجه عقلى سمى إلى غايات الفن العليا ، وتطلع إلى الاستعلاء على ما بلغ أهل الأرض جميعاً من مراقى الأدب والفنون .

ومن ذا الذى لا يؤخذ إخذة العجب والانبهار ، إذا ما رأى تلك الفتاة الصغيرة تفيض بوحى العلم على خريطة السماء ، وقد تَجَمَّعَ من حولها علماء رومية فى ندوة علمية ليصلحوا التقويم الرومانى ؛ أو يستمعون إلى كلامها فيما انتاب وضع الدب الأكبر وكوكبة ذات الكرسى ، وكوكبة الجبّار ، من تغير الوضع حول النجم القطبى ؟

لقد كانت فى كل شىء بمثابة الظاهرة الخارقة فى تجانس الطبيعة . كانت من تلكم المخلوقات التى كثيراً ما يقع عليهم اختيار الآلهة ، ليكونوا فى الأرض ، مثلاً لهم وبرهاناً عليهم .

***

حدث فى تلك الفترة أن قُدِّمَ لها شاب جميل الطلعة ، قوى الأصلاب ، ذائع الصيت ، فائض القوة ، عقلاً وبدناً . كان ذلك الشاب قد هبط رومية قافلاً إليها من أسپانيا ، وعلى رأسه أكاليل الغار التى كان من حقه أن يُتَوَّجَ بها ، جزاء ما أبلى فى مواقع « مُنْدَا » ، ومن ورائه أثقال من الأسلاب . كان قد اعتلى ذروة المجد ؛ فنبه ذكره ، وعلا صيته ، حتى عقد المجد من فوق هامته تاجًا من العظمة والفخار . أما قوامه المعتدل ، وعضلاته المجدولة جدل الحديد الصلب ، وضحكته « الباكُوسِيَّة » التى كانت تشيع فى كل قسمات وجهه الوسيم ، وتفانيه فى البذخ والإسراف ، وصورته الأَخَّاذة بقامته المديدة ، واتساق تركيبه الجسمانى ، فكانت صورة مما تخيَّل الرومان من « هركوليس » الجد الأوَّل لذلك الشاب ، المملوء فذاذة وقدرة .

أتعرف من كان ذلك الشاب ؟ هو بعينه « مَرْك أنطُونيوس » .

بالرغم من أن « أنطونيوس » كان واقعاً فى شباك الخليعة الرومانية « فُوْثِيرِس » فإن جمال كليوپطرا قد أخذه بالناصية ، وحل من قلبه فى الصميم . ولو لا ما كان من احترامه لقيصر ، وتقديسه له ، إذن لبثها الهوى ، وشكى إليها الغرام .

على أن « أنطونيوس » لم يَقْوَ فيما بعد أن يُقْصِيَ عن مخيلته ذكريات اللقاء الأول . تلك العظمة الفاتنة التي شملت الملكة الصغيرة ، وتعابير السلطة والقوة التي انبعثت من عينيها ، وقد مدت إليه يدها الناعمة ليقبلها . ناهيك بلباسها المنسجم ، المنسق على أخص ما يسمو إليه الفن والذوق من دقة وإحكامٍ . أمّا نبرات صوتها فقد وقعت في قلب « أنطونيوس » وقع نصل مسنون رهيف ، هدَّه هداً ، ودكَّه دكاً .

***

مهما يكن في أمر ذلك الإعجاب الذي حوط به الرومانيون « أسپاسيا » — Aspasia — الجديدة ، وهي بين جدران قصرها الذي أصبح لهم بمثابة منسكٍ للفن ، ومعبد للجمال ، ومهبط لوحي الأدب ؛ فإن بعضاً من الذئاب المفترسة ، والنُّمور الجارحة ، كانت تحدجها بالنظرات ، مكشرة عن أنياب زرق ، لعابها سم زعاف .

هم رومانيون قدسوا الفضائل ،أو هم ادعوا أنهم يقدسونها ، أخذتهم العزة الرومانية ، فراحوا ينقمون على قيصر ، قائدهم وحاكمهم المطلق ، تبذُّله مع الغانية الغريبة ، التي لم يَشْرُف دمها بأن يكون فيه من الدم الروماني إثارة ، تشفع لها عندهم بأن

تكون لرجلهم خليلة أو زوجة . ولقد انضم إليهم كل نساء رومية النابهات ، وكان أكثرهن قد لقين من أزواجهن بعض الجفوة ، أو آنَسْنَ منهم نظرات احتقار ، أو لفتات سخرية ، بعد أن عرفوا كليوپطرا عن كثب ، وقايسوا بين أنوثتها وأنوثتهن ، فى زمن اتقدت فيه الشهوات ، والتهبت العواطف ، وتسلط فيه نداء الجنس ، فهزم الفضائل ، وهَدَّ ركن الآداب ؛ فانحَزْنَ مأخوذات بعواطفهن ، مسوقات بمشاعرهن ، إلى ذلك الحزب ، تحدوهن الغيرة ، وتدفعهن الحفيظة ، إلى تحطيم تلك الساحرة الشرقية ، التى أصبح قصرها مباءة لرجالهن ؛ بل أصبح لرومية جميعاً ، بمثابة البيضة والعش ، والسَّكن والوطن والكون .

***

هنالك كان لكليوپطرا أعداء ، أشد من هؤلاء نكاية ، وأصحَّ على الانتقام عزيمة ؛ أعداء أثبت من هؤلاء قلوبا ، وأحَرَّ نفوسًا . هنالك كان أعداؤها السياسيون . سياسيون ذوو عقيدة فى قداسة التقاليد الرومانية ؛ محافظون : يرون فى ما بثت كليوپطرا من روح فى رومية هدمًا لتقاليدهم ، وذهابًا لطرائقهم ، وتطويحًا لأنماطهم الموروثه . وكان قد هبت على رومية ريح الاعتقاد بأن قيصر إنما يرمى ، بعد الاستئثار بالسلطة ، إلى الاستئثار بتاج

رومانى ، يبدد الجمهورية ، التى هى بنظاماتها المعروفة ، موئل الديمقراطية ، ومباءة الحرية . وبالرغم من مظاهر العظمة والجلال التى حاول قيصر أن يحوط بها نفسه ، وبالرغم من مرائى التحكم التى ظهرت فى أعماله ، واتصفت بها سياسته ، فإن اللوم كل اللوم ، إنما انصب على فاتنته الملكية .

اظَهَرَ قيصر بمظهر المارق عن حكم التقاليد ، المستهتر بحق الآداب ، المرتد عن منقول السلف الرُّومانى ؟ هل اعتدى قيصر على القوانين ، وافترى على الشرائع ؟ هل امتهن قيصر مخلفات رومية المقدسة ، واحتقر كل ما أَجَلَّ الرومان من موروث الأقدمين ؟ نعم . فعل قيصر كل هذا ! ولكن اللوم على المصرية الملعونة التى زينت له الفسوق والارتداد ، وهوَّنت عليه أمر رومية ، والرومان أجمعين .

ومهما يكن من أثر الملكة المصرية فى ما بَدَى على أفعال قيصر من فسوق عن تقاليد قومه ، فإن مرَّ الأيام قد أثبت لأهل رومية ، أن قيصر إنما ينأى شيئاً بعد شىء ، عن أوضاع الجمهورية .

ما الذى يحمل قيصر على أن يطيل أَمَدَ سلطته الاستبدادية (الديكتاتورية) بعد أن رفع شبح الحرب ظله عن رومية ، ورَفَّ عليها السلام ؟

غير أن قيصر كان ما يزال المسلط على رومية ، الآمِرُهَا بما يحب ، النَّاهِيَهَا عما لا يحب ، القابض عنها ما لا يريد ، الباسط لها الكف بما يهوى .

كان يدنى إليه من رجال الجيش من يشاء ، ويقصى منهم من يشاء . يُقْطِعُهُم الوِلاَيَات ، ويملكهم الرِّقاب ، حرًّا مختاراً . فلا إرادة إلاَّ إرادة قيصر ؛ ولا رَادَّ لما يشاء .

أيمضى قيصر فى استغلال السلطة إلى غير حد ؟ وعند أى حد سوف تقف سلطة قيصر ؟ إن عنوان « المَلِكِ » إذا أُضْفِيَ على قيصر ، لن يزيد من سلطته شيئاً ؛ ولكن أهل « رومية » كانوا يحسُّون أن قيصر إنما يريد أن ينتهب أول فرصة لينادى بملوكيته ، وليقر السلطة على أساس من شريعة المُلْكِ .

ما مرَّ بخيال قيصر فى تلك الفترة أن يستشير زميلاً ، أو يقف أمام شيوخ رومية وقناصلها وساداتها ، ليؤدى حساباً عما يفعل ، أو عما فعل ؛ بل كانت كل أفعاله نَامَّةً عنه أنه يحاول أن يتحداهم ، وأن يمتحن قدر ما فى أيديهم من قوة ، ليزن الأمر ، ويكيِّف الظرف . هذا إن لم يكن قد قام فى ذهنه أنهم كميات مهملة ، أو فروض لا حقيقة لها ، أو أصفار .

لقد طال المدى بقيصر ، وجرى فى حَلبَة التطرف شوطاً

حمله على أن يهزأ بآداب « كاتو » ، وأن يَشكّ فى التقاليد ، بل وفى الشرائع ، ثم فى الآلهة ! ألم يعلن فى « السناتو » الرومانى جهرة : « إن الجمهورية منذ اليوم اسم لا مسمَّى له » ! مضيفاً هذا القول إلى أشباه من شاكلته ، كانت جُمَّاعُها أبعد ما فاه به « قيصر » عن مظنة التبصر والحكمة ؟

* * *

كان « قيقرون »[1] زعيم الحزب المنابذ لقيصر . ولقد أخذه من أمر رومية هم عميق ، وأزعجه مجرى الحوادث . وكان « قيقرون » أعظم خطباء رومية ؛ وكان بعد قيصر ، أول رومانى يتصدر للزعامة ، عن جدارة واستحقاق . ولقد دلت الحوادث التى عركها وعركته ، على أنه أصلب الرومانيين فى نصرة الحق عوداً ، وأعظمهم فى الدفاع عن مصالح « رومية » تضحية .

كان متجهه الحر ، وسياسته الحرة ، قد حملته على أن يناصر حزب « پومپيوس » الكبير . ومنذ هزم ذلك الحزب وتقطعت بفلوله الأسباب ، انكفأ يعيش بعيداً عن هموم السياسة فى قصره على مقربة من « تُوسْكُولُوم » ، ليأنس بتأملاته ، ويجذل بأحاديث نفسه .

---

(١) يرسمه الكتاب شيشرون خطأ .

ولقد أسف قيصر كل أسف ، أن يفقد نصرة ذلك الرجل لمحتر القلب ، الصُّلْب فى الحق ، المضحى فى سبيل الصـــداقة . ذلك الرجل الذى رفعته كفاياته ومواهبه السياسية والمدنية إلى الذروة العليا من ذلك البناء الحضرى ، الذى أقامته « رومية » على كواهل أبطالها الأمجاد . أسف « قيصر » أن يحرم من نصيحة يدلى بها « قيقرون » فتصيب محز الأمور ، إذا ألمت كارثة ، أو نزلت جائحة ، أو زلزلت الأرض من تحت « رومية » الخالدة :

وما كان اعتزال « قيقرون » العـالم الرومانى ليؤسف قيصر وحده . وإنما كان فيه إيلام لكليوبطرا ، وامتهان لعزتها . كانت تريد ، وما أسـدَّ ما تريد ، أن تجذِبَه إلى قصرها ، فتضمه إلى حلقتها ، فيكون من حاشيتها ، ثم تُحْـكِم معه الحلف والعهد ، فإذا استوثقت منه ، كان لها العون خير العون ، لَمَّا أَنْ تأْزَفَ الساعة التى تهبط فيها على غايتها ، وتقبض بيديها الحديديتين على مرماها .

مع ما اتصفت به « كليو بطرا » من تلك الصفات التى عددناها ، ومع ما كان فى قلبها من جُرْأَة الأسود ، وما كان فى صدرها من شجاعة الأفاعى ، وما كان فى أخلاقها من افتراس النمرات ، فإن مطامعها الذاهبة بها إلى أبعد المذاهب ، الرامية بها إلى أقصى الغايات ،

كانت تقف بعض الشيء عند « قيقرون » ، لتصب عليه نظرة امتزج فيها الحقد بالأمل ، والغضب بالرغبة ، والكراهية بالإعجاب . ذلك بأن « قيقرون » دون سواه ، كان الصخرة التى تقف أزاءها مطامع « كليوپطرا » ، إذ تمر بمخيلتها مر البروق ، لتتأمل هنيهة ، فيما يكون من سحر ذلك اللسان فى أهل العالم الرومانى !

ماوسع « كليوپطرا » إلا أن تبوح لصديقها « أتيكوس » بما يجول فى صدرها عن « قيقرون » . ولقد وعدها « أتيكوس » وكان من أصدقاء الخطيب الرومانى ، أن يعمل على إقناع « قيقرون » ، تلقاء ما كان لها عليه من يد ، وما آنس فى عشرتها من صفاء ومودة . ولم يكن فى العالم الرومانى كله من سفير يؤدى رسالة « كليوپطرا » إلى « قيقرون » ، أعظم من « أتيكوس » نفوذاً ، أو أكثر ملاءمة لطبيعة الظرف السياسى .

وما من شك فى أن « أتيكوس » قد أعانه فى سفارته ، ما كان يلقى خطيب رومية من ألم يحزُّ فى قلبه الكبير ، وقد نبذ وطال به النبذ . فإن رجلاً عرف قدر السلطة ، وسكر برحيق القوة ، وانتهل من مواردها العذبة ، وخطيباً هز أعواد المنابر ؛ وسمع من الجماهير تصفيق الأكف ، وهتاف الحناجر تزلزل

أعمدة الهيا كل الرومانية ، لن يصاب فى حياته بمصيبة ، فتكون من الانزواء والأسر الاختيارى أشد بنفسه أخذاً ، أو بقلبه أمعن عَصْراً .

وما أراد إلاّ أن يسمع تصفيق الأكف وهتاف الحناجر ثانية . فأصاخ إلى قولة « أتيّكوس » وعمل بنصحه ، فقبل أن يصافح « كليوپطرا » ، وأن يكون فى حلقتها محوطاً بأبهة قصرها ، يقرأ فى مكتبتها ما يرضى قلبه وعقله ، ويأنس من جمالها ما يرضى خياله ؛ فظهر على عتبتها ، ملتفعاً بشملته الرومانية ، التى كان يحسن التلفع بها ، على طراز ما عرفه رومانى قبله ، فاستقبلته كليوپطرا ، ومن ورائها قيصر ، مفعم القلب بذكريات الانتصار .

* * *

ولقد أشرق وجه « كليوپطرا » واستنار بتلك الأشعة التى كانت تغمر ملامحها عقيب انتصار تناله ، أو بلوغ غرض تصيبه . فاستقبلت ضيفها العظيم بكل حفاوة ، وحوطته بكل إكرام . ومن أجل أن تختلب خطيب « رومية » الأعظم ، مضت ليلة ضيافته الأولى تفرغ عليه من ضروب البذخ ، وتضفى عليه من صنوف الكرم ، ما حملها على أن تطلعه على كل التحف الفنية النادرة ، والمأثورات القديمة التى لا تقوم بمال ، مِمَّا يزدان

بها قصرها العظيم ؛ ذلك القصر الذى أصبح فى رومية مضرب المثل ؛ بل قرن بقصور الشرق العظيمة فى فارس والهند .

من فوق منضدة من المناضد ، فرش غطاء من الديباج القديم مطرز بالذهب ، تطريزاً يظهر شيئاً من وقائع الفراعنة وتاريخهم القديم ، ومن فوقه كتاب من ورق الكتان الثمين ، به صور تمثل حضارة مصر من أقدم عصورها . وقد يقلب الخطيب الأعظم صفحات ذلك الكتاب ، وقد عمل فيها الزمن فاصفرت أطرافها ، وظهرت على بعضها سُفَعٌ هى من إملاء الدهر ، دَمَغَ بها الأسطر الهيروغليفية التى مضت الملكة الصغيرة تترجمها للرومانى الكبير ، فى لغة لاتينية فصيحة ، كان لها من الأثر فى قلب « ڤيڤرون » أضعاف ما لصوتها الحنون الجميل .

ولما أن رأت أن « ڤيڤرون » قد استغرقته تلك الصفحات ، ظنت أو خيِّل لها أنها قد أخضعت الرجل ، ونالت من رضاه ما أملت ، فوعدته بأن ذلك الكتاب ، سوف يحمل إلى قصره فى « تُوسْكُولوم » صبيحة الغد .

غير أن رجلاً من طراز « ڤيڤرون » ، فيه خلاق القوة والجفوة ، وأنماز من أقرانه بفطرة الاستقلال فى الرأى ، وتقديس الحرية ، قلما تستهويه ؛ مثل هـذه الأشياء التى هى إلى جانب

شخاصته من صُغْرَيَات الأمور . فإن العهود التي كانت قد قطعت لحزب « رومية » المحافظ ، تلك العهود التي حملته على الظن بأن « قيصر » سوف يعود إلى خطته الحرة القديمة ، كانت قد عصفت بها خيلاء « قيصر » واستعلاؤه ، وثورته على التقاليد ، وتحكمه في أمور « رومية » وانفراده بالرأي فيها . وعامة ذا لم يترك في عقل « قيقرون » مَحَلاًّ لوهم ، أو مكانًا لهوًى . فما كان ليشكّ أن سقوط الجمهورية كان وشيكا ، وأن دقائقها الأخيرة قد حانت . ولهذا لم يكن في الدنيا من مكان يستنشم فيه «قيقرون» ريح الاستبداد فيخنقه ، أو يستروح فيه هواء الدكتاتورية ، فيكاد يذهب بأنفاسه ، من قصر تلهو فيه « كليوپطرا » ويمرح « قيصر » ، وإلا فكيف يتفق أن يجمع مكان واحد تاج الملك ، وحكم الجمهورية ؟ ثم يَشْعُرُ « قيقرون » أنه في جو طبيعي ، على مألوف ما يوائم آراءه ومبادئه في الحياة والحكم ؟ فأخذت زياراته لقصر « كليوپطرا » تقل شيئًا بعد شيء ، وتتباعد فتراتها . فقد آنس أنه في خارج جدران ذلك القصر أكثر حرية في التعبير عن آرائه ، حتى لقد قال ذات يوم لصديقه « أتيكوس » مشيراً إلى الجمع الذي كان يغشى بيت « قيصر » : « إني لأشعر بشيء من الاستيحاش في مكان لا يراعى فيه الاحتشام » .

على أن مثل هذه النقود والكلمات ، لم يكن مما يأبه له « قيصر » . فقد كان يعتقد أن كل العقول دون عقله ، وأن كل صفات الرجال دون صفاته . فما الذى يخشى « قيصر » من رجال هم دونه فى كل شىء ؛ فصاحة لسان ، وقوة بيان ، وشجاعة قلب ؛ بل أقل منه تقاليد ! وأية تقاليد تذكرها رومية ، فتطاول تقاليد قيصر ، فاتح الدنيا وسيد العالم ؟

كان يظن أن شيئًا واحداً ينقصه ، ليصبح على قمة الدنيا جميعًا . كان ينقصه حرب جديدة ، يأتى فيها من الأعمال ما عجزت عنه « رومية » فى سالف زمانها ؛ بل ما عجز عنه هو بنفسه ، فى سابق أيامه . مَغَازٍ جديدة ، وحروبٌ طاحنة ؛ ذلك ما كان يجول فى صدر قيصر . حروب لا تذكر إلى جانبها حروب « رومية » ، إلا لتظهر كأنها اللعب مقيساً على الجد ، أو الصغائر مقيسة على العظائم . حروب يذكرها التاريخ وينسى ما عداها . هذا والزمان يرقبه ، وأظفر الغَدْر يمتد إليه عن كثب ، بعد أن ظل مطويًا فى قنَابه[1] عهداً ، كادت تنسى فيه « رومية » سيل الدماء .

كانت بلاد « فارس » مرمى نظر قيصر . كانت « فارس »

---

(١) القناب : الجراب الذى يدخل فيه السنور أظفوره .

تغشى خياله ، وتزوده بتلك الأحلام الشهية ؛ أحلام الشرق ، وأحلام القيصرية الرومانية . كان نظره يمتد إلى « فارس » ، مجال المخاطرات التى أمدت الأسكندر المقدونى بالمجد الخالد والعز التالد . صحاراها المترامية الأطراف ، ونجودها العالية ، وسهولها الخصيبة ، وجمالها الشرقى ، ومدائنها العامرة ، وأنهارها الجارية ، ووديانها الفاتنة التى يغذيها الفرات ، ويمنحها دجلة البهاء والإشراق . حدائقها المعلقة ، وبروجها المشمخرة ، وقصورها المرمرية ، ومعابدها القائمة على تلك العمدان التى أقيمت رمزاً للعزة ، وعنواناً على الخلود : بُسُطُها التى تشارك الدهر ، وورودها الجميلة ، وخزفها المتقن الصناعة . كل مفاتن تلك القيصرية العظيمة ، كانت قد اختلبت لب قيصر ، حتى لم يخل فى قلب « قيصر » مكان لغير « فارس » .

أية فتنة فى « فارس » ! وأى ظلام واربداد فى بلاد « الغال » ! أى إشراق وجمال فى « فارس » ! وأى حزن واكدرار فى بلاد « بريطانيا » ! أما إذا سنح له أن تلمع نسوره الرومانية تحت شمس « فارس » ، فلا المجد ، ولا العظمة ، ولا الخلود بكافيته مطمعاً فى الحياة . أيجوس خلال الديار التى كانت من قبل مجاس المقدونى الأعظم ، ويستولى على تلك الثروات التى تعجز الدنيا كلها عن أن تجمعها فى مكان ، غير « فارس » القديمة ؟

وكانت « كليوبطرا » أكثر من « قيصر » تحمساً لتلك الحروب ، فكانت تذكى خياله بالمطامع ، وتشعل فى نفسه حب العظمة الدنيوية ، ومرماها أن تفوز من « قيصر » بكل ما يحوز من ثمار النصر ، فتسخر « رومية » فى شخص قيصر ، لتنال فى النهاية غرضها الأخير . وما غرضها إلاّ أن تقف على هام الدنيا ، وتسخر من الأقدار .

لم تأبه « كليوبطرا » بما كان يحوم حولها من مظان الحسد والكراهية ، ولم تلن قناتها نظرات المقت التى كانت تنبعث من عيون أهل « رومية » . ولكنها كانت تعتقد اعتقاد أهل العقول الرشيدة ، أن ما من شىء يلين قناة الأرسطوقراطية الرومانية ، بقدر ما تلينها قوة « قيصر » . فمن أجل أن تركز القوة فى شخص « قيصر » ، كان لا بد لها من أن تعمل على تثبيتها فى أنحاء العالم كله ، من أقصى الشرق إلى حدود مملكتها العظيمة ، حتى تصغر « رومية » فى جانب الدنيا ، وتصغر الدنيا فى جانب « قيصر » . بذلك تكبح جماح الرومان ، وتحملهم على الرضا ببقائها تحت كنف قيصر ، مادام قيصر تحت كنفها ، وبذلك تخلص كليوبطرا من الدنيا بالدنيا ، وتفوز من العالم بالعالم .

كانت تريد أن تقيم ذلك الصرح من رؤوس الأمم التى

يطيح بها سيف « قيصر » فى الشرق والغرب ، حتى إذا كمل بناؤه ، وشيدت أركانه ، وقفت من فوق قمته العليا تنظر إلى الدنيا فى قبضتها الناعمة ، ممسكة بيناتها الرخص على أعنتها .

قد نتساءل : لِمَ كل هذا ؟ ولو أنك سألت « كليوپطرا » هذا السؤال ، إذن لعجزت عن أن تجيب لماذا ؟

وعلى الرغم من أنه كان يصعب على « كليوپطرا » أن تبارح ذلك القصر الذى كان يوحى إلى العالم كله بأن « كليوپطرا » سيدة العالم الرومانى ، فإن رجوعها إلى مصر كان أشد عليها صعوبة . أترجع إلى مصر بغير « قيصر » ، لتعاشر أولئك الذين ما حدثوها مرة إلاّ بحديث الثورات ، وما إلى الثورات من أحاديث ؟ كلاّ إن ذلك مما لا يتفق وعقلية « كليوپطرا » . إنما يتفق وعقليتها أن ترافق « قيصر » إلى أقصى الشرق ؛ تشاركه المشاق ، وتشجعه على القتل والتخريب . فأخذت تعد العدة ، وتجهز جهاز السفر الطويل .

* * *

كان من المعتقدات السائدة فى « رومية » أن « قيصر » سوف يتزوج من « كليوپطرا » عقيب عودته من مغزاته الكبيرة فى بلاد «فارس» ، وأن يعترف ببنوة الغلام الذى استولدها

إياه . وراج الظن بأن « قيصر » سوف يضيف إلى السلطة المطلقة التى كان يمارسها فى العالم الرومانى صولجان الملك ، وإنه كان يحاول أن يؤسس قيصرية مترامية الأطراف ، الاسكندرية عاصمتها الأولى . ولقد أشفق الرومانيون أن تكون هذه مطامع « قيصر » وأخذهم مما روج خصومه من الأشاعات هَمٌّ عميق . ولقد شعروا بأن العزة الرومانية قد خدشت فى أعز ما لديها ، وأن أمانيهم أخذت تنهار وان أقدس ما تطلعوا إليه بدأ يتحل ويتبخر ؛ إذ خيل إليهم أن ما طمعوا فيه من سيادة « رومية » على الدنيا ، قد يتحطم وينهار فى ساعة واحدة . ومما لا شك فيه أن الرومانيين إذا تصوروا أن « رومية » مهددة بالانقسام ، مُنْذَرَةٌ بالخراب ، فإن ذلك مما يبعث فى قلوبهم أشد الحزن ، ويبعث فى قلوبهم أنكى حالات القسوة وحب الانتقام .

رميت « كليوبطرا » فى هذه الآونة ، كما رميت من قبل ، بأنها مصدر الشر ، ومبعث القلق ، ومنبت الفساد . ولقد تضاعف فى قلوب الرومان مقتها ، وزادت كراهيتها . ونجح أعداؤها فى ترويج الأكاذيب عنها ، وبخاصة فى إلقاح العقل الرومانى الساذج بأن « كليوبطرا » قد قطعت على نفسها عهداً لتحكمن « رومية » يوماً مّا . ولما أن اعتقد الجماهير ، أن الملكة

الطامعة، قد امتدت مطامعها إلى « رومية » نفسها ، غير مقتصرة على قيصر وحده ، زاد بها الهم ، وانساب فى نفسها حب الانتقام . ولقد قام شغب شديد فى « رومية » مرة ، لما أن ظهرت فى شوارعها محمولة على هودجها الملكى . وقام فى أنفس الناس ميل إلى العمل على أن تضطر الدخيلة المصرية عنوة على أن تغادر بلاد الرومان ، وأن تقسر على أن تعود إلى بلادها : بلاد التماسيح .

ولقد وقع فى أذن « قيصر » شىء من هذه الأقاويل . فكان له من سوء الوقع فى نفسه ، أكثر مما كان للنقود التى وجهت إلى مسلكه وإلى أعماله . أَنْ يجرأ الرومان على أن يمتهنوا تلك التى أحبها وعبدها وفضلها على نساء العالمين ! أَنْ يتفوه الرومان عنها بكلمات يعوزها الاحترام والتقديس ! ذلك ما لا يستطيع « قيصر » أن يتسمح فيه ، أو يهمل النظر فى أمره . ولقد أشار فى درج كلامه مرة إلى فئة من أولاء فقال :

« سوف ترون العقاب الذى ينزل بهؤلاء المناكيد المأفونين » .

واستدعى المَثَّال « طِيمُومَاخُوس » تواً ، وكان من أَشْهُرٍ مكباً على إخراج تمثال للملكة مصنوع من العاج ، مُنزَل بالذهب الخالص .

— « كم من الزمن تطلب للفراغ من عملك » .

فأخذ المثال يفكر ، وحسب فى نفسه الزمن الذى يستغرقه العمل فى إنزال الذهب فى جسم التمثال، ولم يكن قد بدأ به بعد، وأجاب فى حذر :

— « أحتاج . . . عشرين سنة على الأقل » .

— « لك ثلاثة أيام ، أريد بعدها أن أرى التمثال مقاماً على قواعده فى معبد ڤينوس » .

كان كل رومانى يخشى تلك الساعات التى تهتز فيها أعصاب « قيصر » المكدودة بماضٍ مفعم بأعظم المخاطرات . فالويل لمن يقف عند ذاك فى سبيله ، أو يخالف له أمراً . وأقيم التمثال فى اليوم المعين باحتفال قلما رأت « رومية » أعظم منه بهاءً أو أشد رواءً . ولكن المقت كان فى النفوس مكبوتاً . نفوس رجال الدين والنبلاء والضباط والقواد على اختلاف المراتب والمنازل ، إذ اضطروا أن يركعوا أمام الآلهة الجديدة التى غزت « رومية » فى أعز معاقلها ؛ فى هيا كلها ومكان العبادة فيها . عبادة الآلهة . وعبادة التقاليد . وعبادة الجمال .

***

بعد فترة من الزمان أراد « قيصر » أن يمسّ الرأى العام

الرومانى ليبلو ما فيه من قوة ، وما يخبئ من ميول . أراد أن يمتحن ذلك بتجربة جديدة .

كان ذلك فى عيد « لُوفَارْكالِيَا » ، وهو عيد « كرنڤالى » عِدَّتُهُ بضعة أيام ، اعتاد فيه فتيان النبلاء أن يظهروا فى شوارع رومية نصف عرايا ، يضربون المارة فى رفق بسياط قصيرة من الجلد ، بدعوى أن ذلك مجلبة للحظ الحسن والتوفيق . وبحكم أن قيصر كان حَبْرُ رومية الأعظم ، رَأَسَ الاحتفال ، فجلس فى كرسى من العاج المموَّه بالذهب ، وإلى جانبه « كليوپطرا » ؛ وبعد أن اصطبغت الأرض بدماء المَعْزَى والكلاب جرياً على مألوف العادة فى ذلك العيد ، كان « قيصر » على وشك الانصراف ، إذ تقدم إليه « مرك أنطونيوس » ، مخترقاً صفوف الناس ، وتقدم إليه بتاج محاولاً أن يضعه على رأسه .

ارتفعت من بعض الجوانب أصوات ، وظهر بعض الهرج ، فكان أشبه بذاك الدَّبيب الذى يغشى سطح البحر العميق قبيل العاصفة . غير أن « قيصر » قد أحسَّ أن زمن هذا لم يئن ، فتنحَّى قليلاً . غير أن « أنطونيوس » عاود الكرة عليه ، بتأثير « كليوپطرا » التى لا يبعد أن تكون مصدر هذه المأساة ، فتقدم إليه « أنطونيوس » مرة ثانية ، وبيده التاج المتوهج ،

ملحاً فى أن يقبله « قيصر » ، وأن يزين به الرأس التى تنحنى أمامها أكبر رأس فى « رومية » .

ولكن الدَّمْدَمة ، وكانت أشبه بدمدمة بركان يحاول أن يخرج حِمَمه ، قد قرعت أذنى « قيصر » بأشد مما قرعتها أول مرة ، حتّى لقد خيِّل إلى « قيصر » أن العاصفة قد بدأت تداعب الأمواج . فما كان « لقيصر » بعد هذا إلاّ أن يشيح بوجهه عن التاج ، ثم يلقى به بعيداً عن رأسه . هنالك شهد العالم جميعاً أنه رفض أن يكون ملكا ، وأنه ألقى بالتاج إلى الأرض . فهل يتهمه بعد ذلك أهل «رومية» بطمع الملكية ، أو يتهمون « كليوبطرا» بأنها توسوس له بمطامع الملك ؟

* * *

لقد خدع الكثيرون بهذا المنظر التمثيلى ، فهبوا يصفقون بأيديهم ، ويرسلون هتاف الاستحسان من حناجرهم ، أما الذين هم كانوا أنفذ نظراً ، وأعمق فكرة ، فقد همس فى وعيهم صوت مصدره العقل : « لا شك فى أن « قيصر » إنما يرفض اليوم تاج الملك ، ولكن ليقبله بعد أن يعود إلينا من مغزاته ، رافعاً ألوية الانتصار ، عاقدا فوق رأسه أكاليل الفتح العظيم » . هنالك تكونت النواة الأولى من مؤامرة أخذ من ثَمَّ جيل يرويها عن

جيل ، وأهل ينقلها عن أهلٍ ، وفى زوايا « رومية » المظلمة كنت ترى المتآمرين مجللين بسوادين : سواد الليل ، وسواد الدسيسة ، ليكونوا للقدر أداة القضاء على « قيصر » .

***

كان الربيع قد أخذت تبتسم براعمه الأولى . كان ذلك فى منتصف شهر « مارس » الشهر الذى انتحل له اسم إله الحرب . فيه تهب على « روميـة » رياح شمالية عاتية ، تخضب سماءها بسحب حمر ، انعكست عليها أشـعة الشمس غروباً وشروقاً ، فتلوح من ورائها السماء كالحة الصفحة ، باهتة الأديم . فيه تهتز الأشجار بعد سبات الشتاء ، وتربو وريقاتها وبراعمها ، وتعمر تلال « رومية » السبعة بعد انجرادها ، بتلك الزهرات المخبوءة بين الحشائش التى تنبت ومقدم الربيع . فى سفوح تلك التلال تنام المدينة الخالدة ، حالمة فى بحر من الليل الساكن . فإذا تساقطت كسف الظلام عليها ، أخذت الحركة تقل فى شوارعها وممراتها ، شيئاً بعد شىء ، حتى تموت جلبة النهار فى لباس الليل . تلك سويعات يعود فيها المكدودون ، بعد عمل النهار ، لِيَتَقَبَّلُوا من ساعات السَّواد ، نعمة الراحة فى بيوتهم ، التى يشرفون منها على حظوظ العالم المعمور . وفى تلك الساعات كنت ترى « قيصر »

بعد كد النهار فى الاشراف على مهيئات المغزاة الفارسية ، مسرعا عجلان الخطى ، ميمماً شطر القصر الذى تنزله فاتنته الملكية .

تراها جالسة بعقربة من النافذة ، حيث تستطيع أن تراه عائداً إليها ، غارقة فى أحلامها ، مأخوذة بأوهامها . هنالك بعد أيام معدودات يغادران رومية للرومان . وبينما يكون « قيصر » فى جوف آسيا يشن الغارات شرقى بحر « قزوين » تكون هى فى مصرها على ضفاف النيل . ولقد همها الفراق وأفزعها ، وأوحى إليها بأنه فراق سوف يكلفها المضض ، ويوليها الصعاب . غير أنها اطمأنت للفراق ، وراضت نفسها عليه ، لعلمها بأنه محتوم لا مفر منه . أليس المجد للعظماء بضرورى ، كالخبز للدهماء والذُّؤْبَان ؟ أما إذا تم لقيصر أن يصبح سيد « فارس » ، فإنه ولا شك يصبح سيد الدنيا . إنه ليكون فى مقدوره أن يضعها على عروش نِينْوَة وبابلونيا وفارس . ما من قوة فى الدنيا تستطيع أن تصدهما عمَّا يريدان . فهما معاً سوف يشيدان عاصمة ملكهما . أما « رومية » ، تلك التى ما مرَّت « كليوبطرا » فى ناحية منها إلا وزأرت زئير الذئاب الجائعة النهمة ، فسوف تضطر إلى أن تستقبلها بالهتاف خاشعة ، ودموع التوبة تجرى على خديها .

على مِثْل هذه الخيالات القوية الصريحة ، وبِمثل هذه الأحلام

التي هى أشبه بأحلام « سميراميس » ، كانت لعنة « إِيْدِسْ مَارس » سوف ترسل صواعقها ، وتنزل غضبها العاصف الشديد .

* * *

كاد الصبح يتنفس ؛ وقد غادرها « قيصر » منذ ساعة واحدة . غير أنه ضَمَّها إلى صدره ضَمَّة أحست بها « كليوپطرا » أن ضلوعها تكاد تمزق ، وأن قلبها يكاد يعتصر . لم هذا ، ألأن « قيصر » يشعر بأنه سوف لن يراها !

بومضة من ومضات ذلك الوحى الغريب ، بل الالهام السماوى ، الذى قد ينزل بعض الأحايين على قلوب البشر ، تشبثت به « كليوپطرا » متشفعة به أن لا يفارقها .

— لم تخرج اليوم باكرا ؟ لقد ذكرت أنك متعب ! ظَلّ هنا واسترح .

ولكن لا . إن « قيصر » كان مُنْتَظَرًا . وحذر أن يتأخر أرسل « بروطوس » زميله « كشيوس » ليتلقّاه ؛ ومن غير أن يستشف « قيصر » شيئا مما خبأ له الدَّسَّاس القاتل ، ألقى إلى « قيصر » أن يسرع الخطى ، وأن يعجل فى الذهاب . ذلك بأن أمورا عظيمة لا يقطع فيها « السناتو » الرومانى برأى من غير أن يستطلع رأى « قيصر » .

هنالك فى « السناتو » وقعت الكارثة . سمع لغط ، فوقف السابلة من الخارج يستمعون متسائلين : — ما ذا جَدَّ ؟

وبعد قليل ظهر بعض الشيوخ على الشرفة ، صفر الوجوه مرتعبين ، وصاح بعضهم « قتل قيصر » .

وعلا الصياح وارتفع العويل من كل مكان ، ولكن صوت المتآمرين كان عظيماً ، إذ صاحوا أجمعين والسيوف فى أيديهم تلمع ، وما تزال تقطر من دم قيصر :

— لقد أنقذنا شرف الجمهورية ، وانتقمنا لها ! ! !

فزع الناس أشد الفزع ، وهبوا هاربين كأنما هم فى يوم الحشر الأعظم ، أو نهر انهارت سدوده فتدافقت لجحه ، وانتشروا فى نواحى المدينة . وفى لمح البصر ، ذاع النبأ فى « رومية » ، حتى لم يبق فيها حجر واحد لم يسمع بمصرع قيصر . وعم الرعب المدينة ، وسادها الفزع الأعظم ؛ فأغلقت الحوانيت ، وسدت النوافذ ، وغلقت الأبواب ، ليخفى كل إنسان أكنَّتْه « رومية » فى ذلك اليوم ، ما ناله من خوف واضطراب . لقد علم الرومان أن كارثة حلت بهم ، وأنه على أثر « قيصر » سوف تذهب أرواح وتطيح رؤوس .

* * *

كان هذا الحادث نهاية أحلام « كليوبطرا » الذهبية ؛ فخيل إليها أن هاوية سوداء فتحت تحت قدميها ، وابتلعت فى جوفها العميق الهاوى كل مستقبلها . لقد تبدلت الدنيا المخضوضرة الزاهية ، فى لحظة واحدة ، صحراء قفر مجدبة .

وهنالك على ضفاف نهر « التيبر » ، كانت تعدو شراذم من الجند شكت السلاح ، وهى تلوح بشارات عليها صور عظام جماجم بشرية . ذلك رمز الحرية الرومانية .

ها هم قد وقفوا قليلا بجوار منزل « قيصر » . ومن حناجرهم القوية صدرت هتافات ، أفسدت على الطبيعة بهاء يومها الربيعى .

— لتسقط المرأة المصرية ! اقتلوها ! اقتلوها !

كانت هذه الأصوات عين الأصوات التى ترسلها الحناجر البشرية ، فى كل ثورة من الثورات التى شهدت فظاعتها البشرية على طول السنين والأحقاب .

هنالك من حول الملكة نفر من الخدم والعبيد ، مصممين على أن يدافعوا عنها حتى الموت . ولـكن الموقف كان أجل من أن يترك فى رؤوسهم عقولا يفكرون بها ، أو قلوباً يصمدون بها فى القتال .

كان هنالك رجل واحد لم تخنـه شجاعته يوماً ، ولا فارقه

عقله ساعة ، مهما أدلهم الخطب ، أو تنكرت الأقدار . هنالك كان « أفوللودورس » : فسارع إلى القول :

— ينبغى لجلالتك أن تغادرى هذه المدينة الدموية بغير إبطاء .

غير أنه لم يكن من طبع « كليوپطرا » أن تخضع للتهديد أو تحنى للوعيد ، فثارت على نصيحة أستاذها وعاندت فى تنفيذها . كانت فطرتها تحملها على أن تقاوم هذه الجماهير .

من ذا الذى يدرى ، لعل هناك بقية من أمل . إن « قيصر » لا بد من أن ينتقم له منتقمون ! فإن حزباً على رأسه « انطونيوس » قد تكون سراعا والتأمت وحداته . لقد أحب « انطونيوس » قائده « قيصر » وقدسه .... ولعله ينفذ وصيته فيعترف « بقيصرون » ابنه منها ووريثه فى . . . .

ما كانت هـذه الأمانى غير أحلام ، أحلام إن تمادت فيها « كليوپطرا » فقد تودى بها . بل ربما أودت بها وبقيصرون .

وتعالت الصيحات . فلم يكن هنالك من منجى إلا بالخضوع إلى نصيحة « أفوللودورس » ، وكان قد أعد كل شىء للهرب ، ومغادرة الأرض الدموية .

من خلال تلك الحدائق الغناء ، وبين مفاوز التلال الموحشة

الجرداء ، والاحتياط من الأنظار ومن قطاع الطرق ، استعادت « كليوپطرا » ذكريات أربع سنوات فَرَطْنَ ، عندما رجعت من منفاها تطلب حماية « قيصر » ، وقد اضطهدها أخوها .

هنالك أرخت على وجهها قناعاً كثيفاً ، وتسللت من « رومية » الهادرة بالثورة ، الهابَّةِ إلى السلاح .

قد تحطم قلبها ، وتحطمت أمانيها . أحست أن الدنيا تدور بها ، وأن فى كل خطوة فجوة من فجوات الأرض تلقاها .

الخوف ، والوحدة ...

كانت آمنة بقيصر . كانت مطمئنة إلى الدنيا بقربه .

منذ لحظات قصار ، كانت الدنيا أمناً وسلامًا ؛ فانقلبت فى لحظة واحدة ، رُعْبًا وحربًا .

لقد ساورتها هذه الأفكار ، فغشت على عقلها وخيالها بغشاوة كثيفة من القلق والاضطراب . غير أنه إلى صدرها استندت تلك الرأس الصغيرة التى تحمل ملامح الراحل العظيم . فضمت الطفل إلى صدرها ، وقبّلت فاه الباسم الجميل .

« كلا . إنى لم أفقد كل شىء » .

ذلك همسٌ أحيي فى قلبها الأمل تارة أخرى .